

مُذكّرات شهيدة

تُقى الموسوي

مذكرات شهيدة

Memoirs of a Martyr

تُقى الموسوي

العراق / بغداد

٢٠٢٣م ـ ١٤٤٤هـ

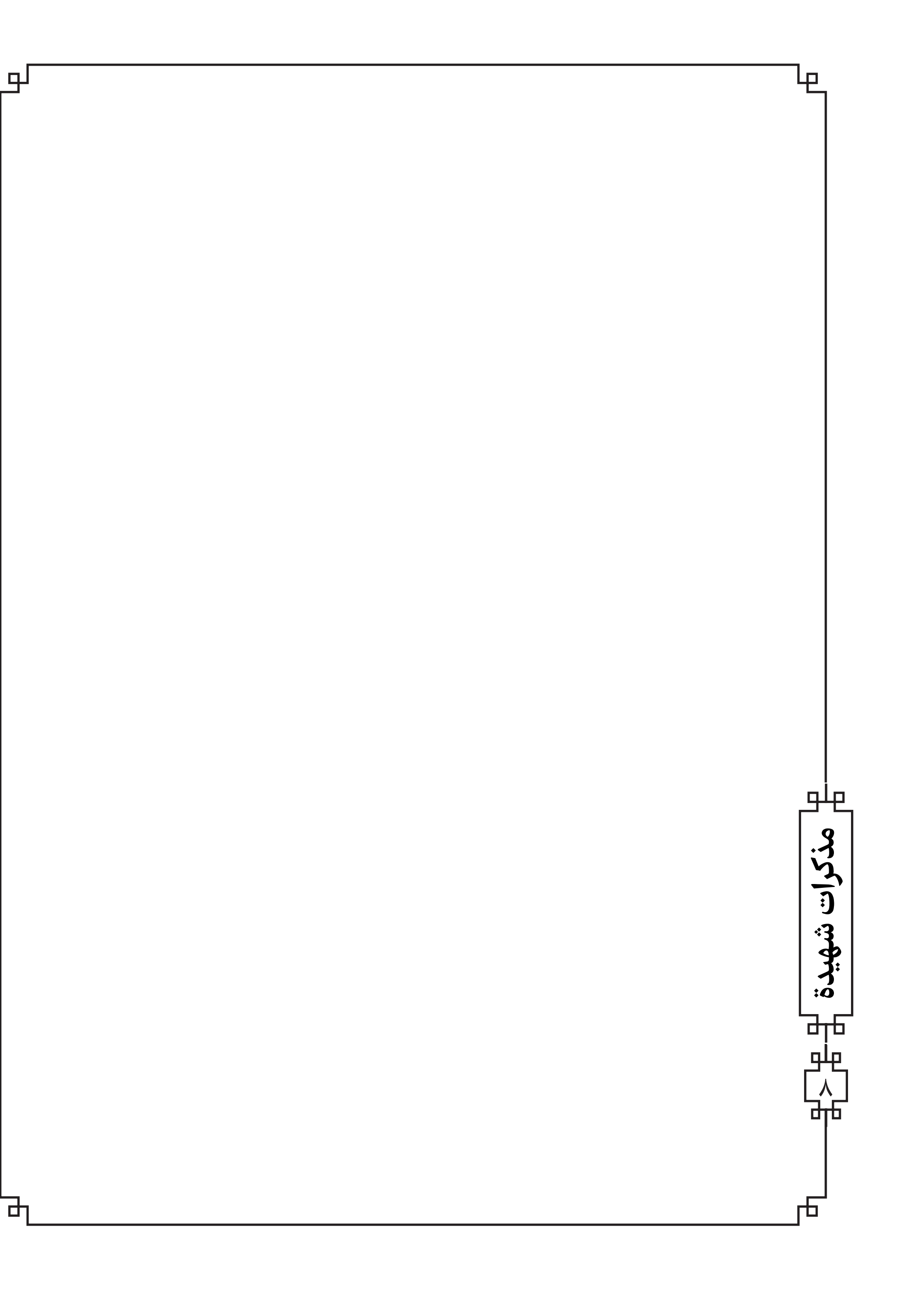
مذكرات شهيدة

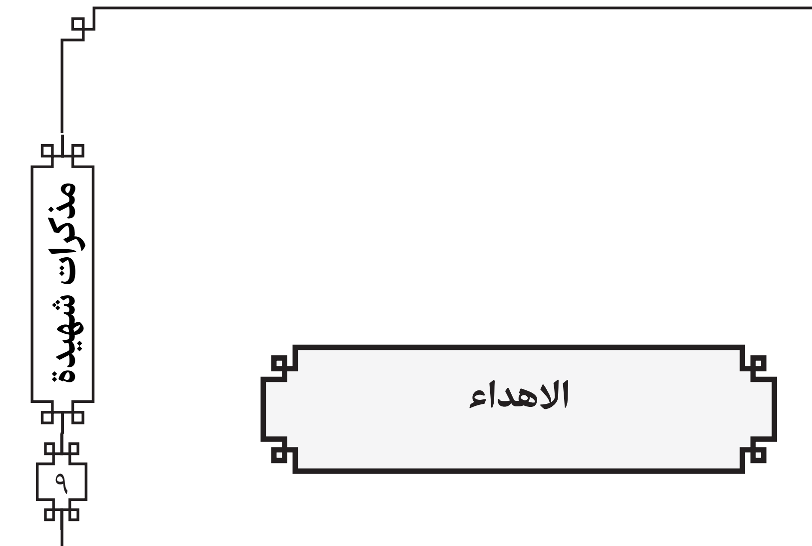
تُقى الموسوي

تصميم الغلاف والتنضيد:
ردينا جعفر
المطبعة :
الهاتف:
الطبعة : الأولى ٢٠٢٣م.
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة.
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
(   ) لسنة ٢٠٢٣م



الفهرس



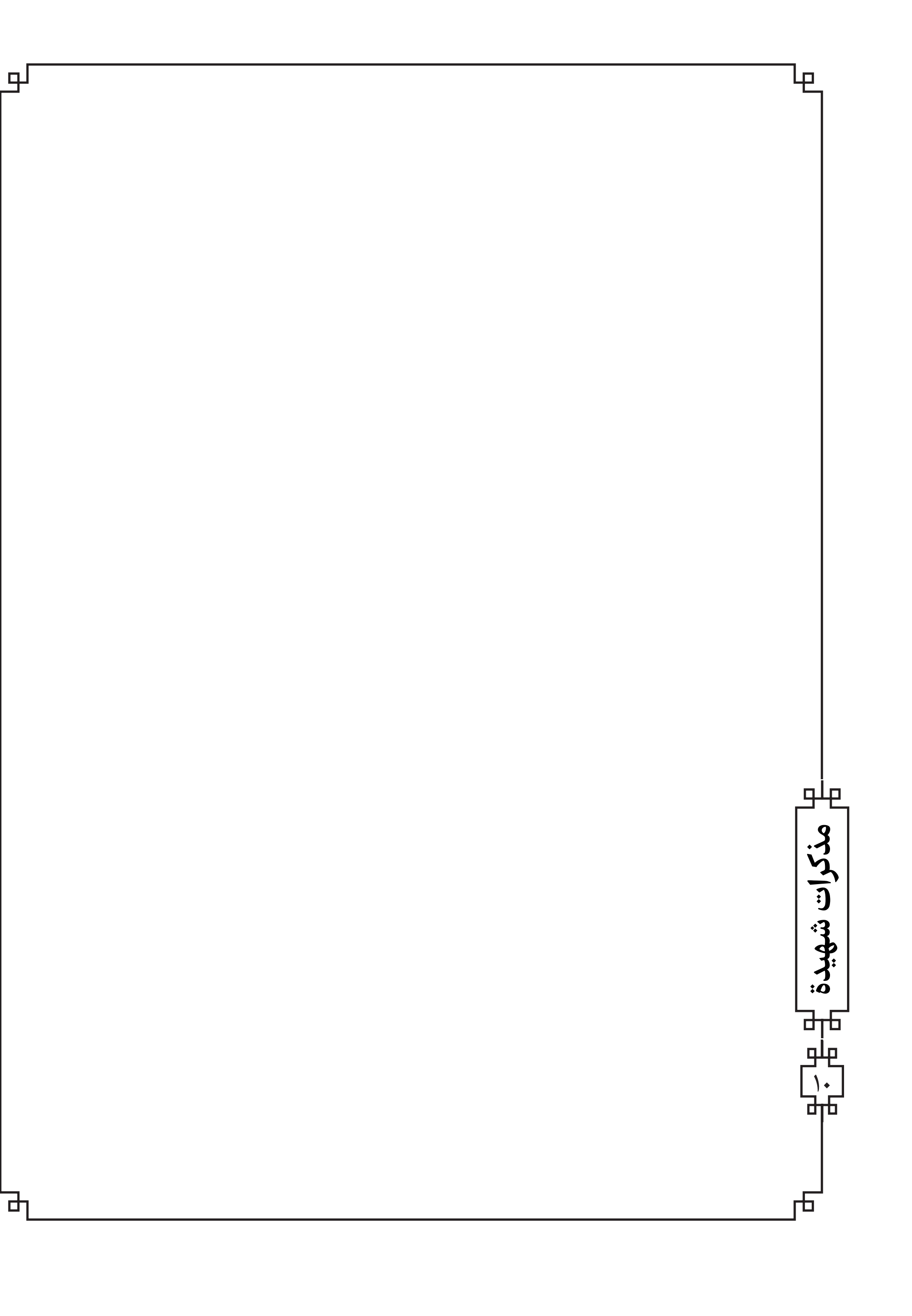


الاهداء

إلى رائدات الجهاد، وشـريكات المحن، إلى اللائي لم تقعد بهن الأحلام الوردية، ولا لذائذ الدنيا المغوية، عن السير نحو الله، قد اسـتعذبن العذاب في سـبيله احياءا لدينه، وإتماما لنوره، فما نكصن عن المسير في الطريق الدامية، ولا تثاقلن عـن المضـي نحو الغاية السـامية بنـور الصبـر واليقين عبر دهماء المصائب، واعتكار النوائب.

إلـى السـائرات فـي درب الإسـلام العظيـم وأخص منهن معلمتـي شـهيدة العراق الخالـدة، بنت الهـدى، اهدي هذه المذكرات.

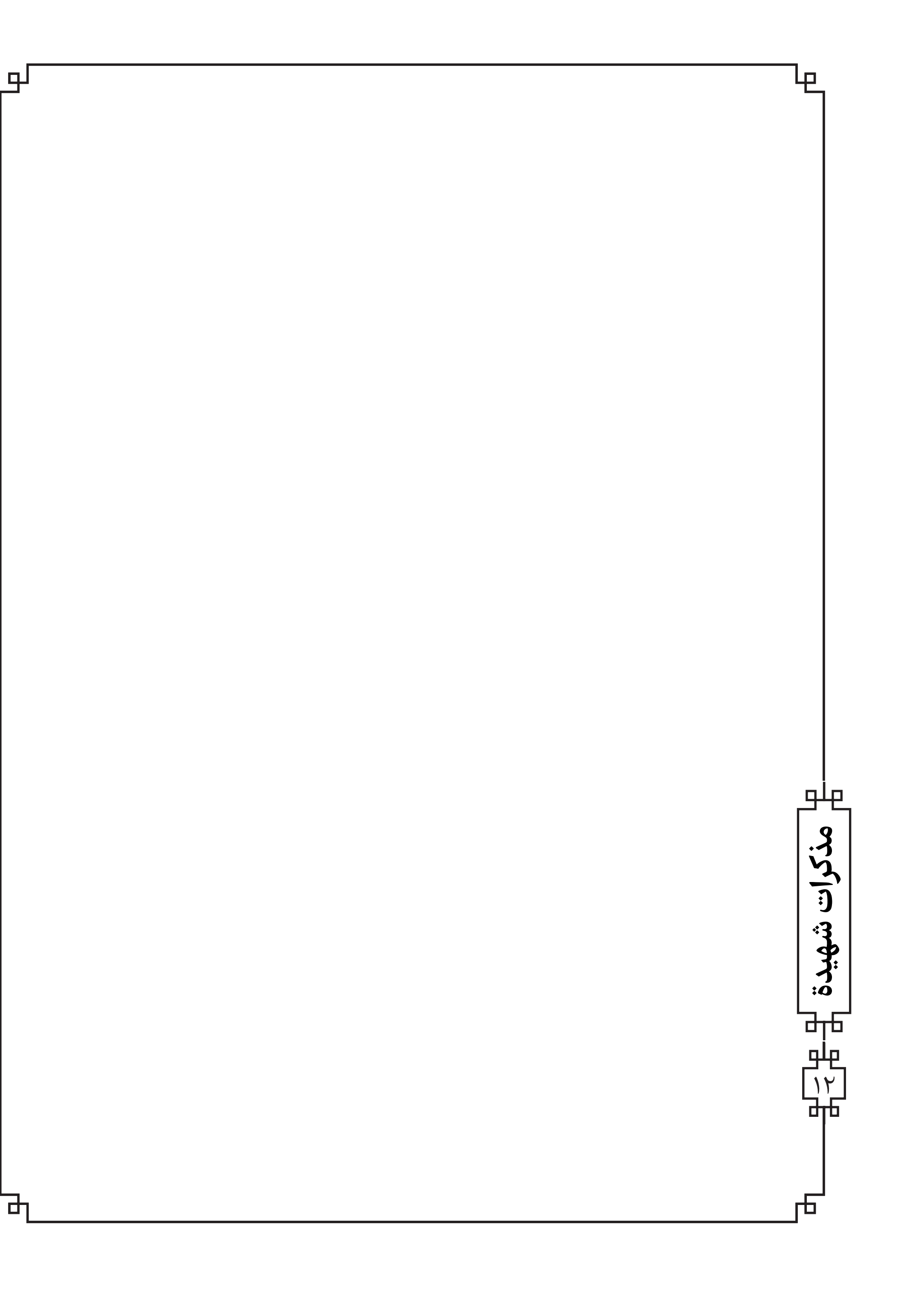
تُقى الموسوي

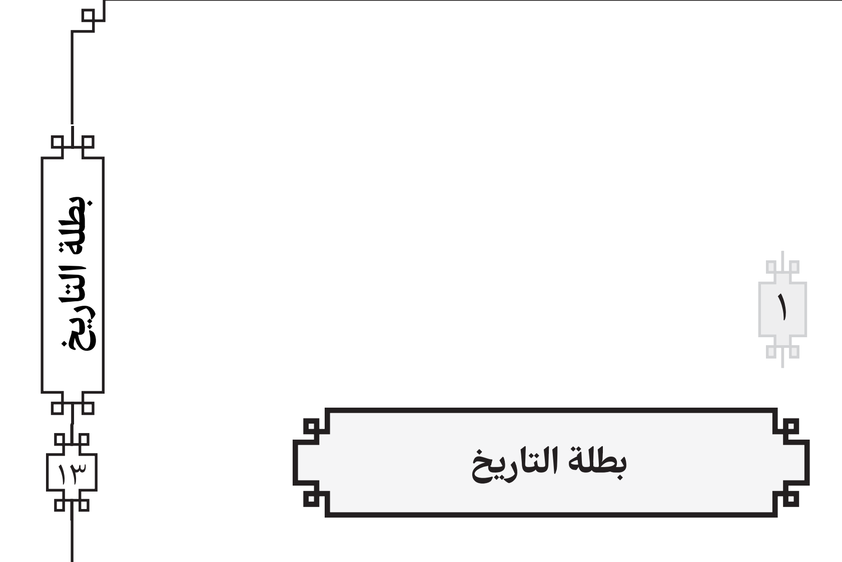


تقديم

مــن كتــاب الجهــاد الكبيــر المســطور للمــرأة الثائرة في عراقنا، ومن ســجل التضحية الذي كتبــت فيه بحروف من دمها وعنائها قصة البذل والفداء، ومن النار المسـعّرة لتلك الهموم المقدســة والآهات الشــريفة، والحســرات الرضية، والأنــات العاشــقة تحت ســياط الجلادين تتصعــد الى رب العالمين. تستخرج هذه الذكريات لواحدة من بنات الايمان، ونســاء العقيدة، وحاملات المشــعل، وناشرات اللواء، ثورة علــى الباطل الكريــه، وطلبا لنصرة الحق واعــزازه، وتمكينه مــن زمام الريــادة لمجتمع صهرته رمضــاء الآلآم المضنية فــي مفاوز الــذل والحرمان، في أكنــاف الجاهلية البعثية _ مشاركة منهن لاخوانهن الرجال في ملاحم الكفاح الاسلامي المقدس، وفي ثوابه وجزائه ســواء بســواء على هدي قوله سبحانه:

[وَالْمُؤْمِنُــونَ وَالْمُؤْمِنَــاتُ بَعْضُهُمْ أَولِيَآءُ بَعْــضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْــرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَــنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّــلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُــولَهُ أُوْلَئِكَ سَــيَرْحَمُهُمْ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيــزٌ حَكِيمٌ، وَعَــدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَــاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِــن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَــاكِنَ طَيِّــبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ].





١

بطلة التاريخ

احتجبت آخر خيوط الشمس، واختفى قرصها عن الأنظار، وبدأ الظلام يدب رويدا فيكسو الطبيعة بوشاحه الأسود، جثم على الكون وعلى النفوس، وكأنما كانت الشمس تسرّي عنها بعض ما يلمّ بها في أحشاء الليل فاذا ما تقلصت ظلالها وإنحدرت نحو الأصيل وتلونت صفحة المغرب بالدماء، تكاثفت الهموم في القلوب موجعة رهيبة.

القلق يدب في نفسي، الهواجس تنتابني من كل مكان فلماذا؟ لماذا هذا القلق وهذا التوجس وهذه الخشية؟ أيخشى المؤمنون من غير الله؟ ايقلقون لغير آخرتهم؟ ايعبأون بغير الوعيد لمن فسقوا عن سبيل الله؟

المؤمنون المخلصون شغلتهم امور آخرتهم عن أمور دنياهم، إنهم يزرعون ليجنوا غدا، إنهم يزرعون حتى ولو علموا إنهم يزرعون للأجيال القادمة لا لانفسهم.

حقا انني لضعيفة، لماذا هذا القلق وهذا التوجس؟ مالي أراني ريشــة في مهب ريح عاتية، جسـمي يـكاد يهوي على الارض، عيناي لا تثبتان على شيء، أفكاري لا تهدأ، تأملاتي المضطربـة لا تنضب، هاهما يداي تشـتغلان وحدهما وأنا لا أدري كيـف تـدوران، وكيـف يعتصر بعضهمـا بعضا، حقا انــي لصغيرة على صروف الحياة أريد منها ما يرضيني، وما يريحني، اريدها مفروشـة بالورود، مكللة بالرياحين، موشاة بالحريـر، فلا تنتابها الريـاح العواتـي، ولا تعتريها الوحوش الضواري، نعم نظرت الى نفسـي بعد أن فطنت الى ما يجري فـي داخلي فرأيتنـي كطفل صغير يطلب مـا يرضي رغباته، ذرعـت الغرفة جيئـة وذهابا وإذا بعينـيّ تقعان على قوامي فـي المرآة، لمحت شـكلي فاذا بي جسـم عريـض طويل، رأس كبير، أسـدلت جفني على عيني كالذي يعتريه الخجل، وخرجت مسرعة الى ساحة الدار، وكانت تلك الليلة مظلمة، وفـي الليالـي المظلمة يتألق إشـراق النجوم تألقا، ويشـتد لمعانهـا، تعلـق ناظـري بالعظمة فـي بديع صنع السـماء، وخشـع قلبي لجلال المنظر ورددت قوله تعالى (وَالسَّـمَآءِ وَالطَّارِقِ، وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ).

وكأنمـا طـردت عـن عيني تلك الأشـباح الممضـة، وعن خاطري تلـك التأملات الخبيثـة، فهذه الأجـرام المترامية، وهذه السـماء العظيمة وما انتشـر علـى صفحتها من هذه الصنائع العجيبة، ولمح في ذهني قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِـلاَفِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآيَـاتٍ لأوْلِي الأَلْبَابِ).

صرفنـي عـن كل ما ألم بـي وانتابني من خـوف، لقد فتر

ارتعـاد اطرافي. وسـكنت جوارحـي، (أَلاَ بِذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

وهدأ وجيب قلبي، نزعت عن نفسي ذلك الجلباب الحالك الذي لبسته، وفككت عن قلبي ذلك الغل الذي طوقه، أخذت اروض نفسـي على أن تعود الى ّأيسـر حالهـا آمنة مطمئنة، سـألت روحـي المضطربة الحائرة لماذا ومـم الخوف، لماذا القلق؟ قلّبي يا نفس صفحات التاريخ، انظري فيه جيدا ماذا ترين؟ انها مسـيرة واحدة، نهـر من الدماء الزكية يجري فلا ينقطع، أيديهم مقيدة، أفواههم مكمومة، ما تصدر صيحة الا ويصكها إعصار، ولا تنجم ناجمة الا ليقطعها سيف ظالم، قطعت ألسنتهم في أفواههم، أو استلت من أقفيتهم، علقوا في جذوع الاشـجار، بنيـت عليهم المباني وهم أحياء حتى لاقوا ربهم، صهرت جلودهم، بقرت بطونهم، فما اسـتكانوا ولا لانوا، وظل طريقهم مشـرقا، وانقلبت دمائهم مشـاعل تنير الطريق، يسـتضيء بها الذين يريـدون الحق، ويبتغون هداه وسـداده، انظري يا نفسـي الحائرة الى ما يجري اليوم على هذه السـاحة فلن تريه غريبا، انظـري الى ما يتكرر في هـذا البلد من سـالف الظلم ولكـن بعين قدوتـك الزهراء فإنك لو نظرت بها لملئت نشـوة وطربا، ولتنفست الصعداء بعد كبت الغماء، لشممت أريجا لم تتشمميه من قبل، انه أريج البهجة والهناء.

سـترين الراحـة التـي تنشـدينها مـن قبل، سـتفوح من جراحك الدامية وآلامك العظيمة، أنسام شذية، ستعلمين انـك ركبت سـنن الاولـين الصالحين، وبـدأت بالتقرب الى السـماء، ومـا معنـى ان يتقرب الانسـان الى السـماء؟ انه

يرتفع عن تفاهات الأرض، وقيم الانسان الترابية، انه يدرك الغايـة، ويعـرف الطريق فلا يخبط خبط عشـواء، ولا يتعثر بأذيال الخيبة والفشـل، انه يسـير بأقدامه الدامية، يحرقه لهب الصحراء فلا يتأوه، ولا يتذمر، لانه يعدو ليحقق حلمه الكبير، وأمله العظيم، وهدفه السامي.

عـودي يا نفس تأسـي بمن كان قبلـك، احرقت جلودهم حتـى أطفأ صديدهـا النيـران، كبتت أنفاسـهم حتى كادت تخرج أرواحهم من أجسـادهم، وضعوا في طاحونة الأذى، ولكنهم صابرون محتسبون وهم بعد حديثوا عهد بالرسالة، لم يطلعوا الا على هوامش منها.

أتدريـن ان أول مـن ضحى في سـبيل الله امرأة مملوكة كانت تخضع لسـيدها وتقضي شـؤونه، تخدم صبيانهم، يا نفس ثوبي الى رشـدك واسألي من سمية عن ما لاقت من بلاء، ها هي امامك فاطرحي عليها ما لديك من اسئلة:

ايه ام عمار حدثيني بالذي جرى عليك؟

وترد ام عمار قائلة:

لقـد وضعني جلادي في جلـود الماء امور فيها ابحث عن الهواء فلا اجده، فما أن اشـارف علـى النهاية حتى يخرجني جلادي لتعود اليّ قليل من الانفاس، فاعاود الصبر والثبات. والاقسـى من هذا انني انظر بعينيـن والهتين دامعتين الى طريحيـن بجنبي يئنـان انيني، وهمـا اعز ما لـديّ في هذه الحيـاة، بـل كل شـيء عندي في هـذه الدينا بعـد ايماني، انهما زوجي الشـيخ ياسـر، وابني اليافع عمار، انني اسـمع اسـتغاثتهما فلا أحزن، ولا يحز بي الغم، انني أخاف عليهما خيفة موسى ابن عمران امام السحرة انني اخشى عليهما ان

يغلبهمـا الألم على ارادتهمـا وايمانهما فيقولان ما لايرضي الرب، وما يسخط النبي.

باختصار هذا ما قالته سـمية لي وأنا احاول ان اسـتحضر صورتها المنيرة في فؤادي لاستضيء بذلك الصمود المبدع في عالم التضحيات.

هـذه اول شـهيدة قدمهـا الاسـلام علـى طريقـه الدامي العسـير، وأول فـداء لـه، على دربـه الزاهر المنيـر الذي لا يبصـره أهـل الغـي ولا يدركه العُمـي الذين علـت عيونهم غشاوة الجهل والباطل.

يا نفس لسـت بحاجة لان اذكرك بزينب فتلك شـمس لا يخفى ضوؤها على ناظر، ولا يحجب نورها عن مبصر.

واناديها:

يـا بطلـة التاريخ المضحـي الدامي، اعطنـي من صمودك وتضحياتـك وكلميني عن مشـاعرك وانـت ترين الاضاحي من ال هاشـم مجندلين تحت ضوء النجوم، وشعاع القمر تسفيهم الرياح، وتذروهم الرمال.

سـيدتي العقيلة يـا بطلة كربـلاء، يا صيحـة الرفض التي جاوزت اعنان الفضاء، يا اسطورة التضحية والفداء، هل لي ان اسألك، وهل يحق لي مناجاتك وانت في عليائك.

وترد عليّ:

وهـل تريـن فيّ اثر لتلـك النكبات؟ وهل تسـمعين مني صيحة اثر تلك الضربات؟

او يتـرك النمـل اثرا اذا ما مشـى فوق الصخـور؟ ام هل تحجب الشمس بالغرابيل؟

لا يا سيدتي لا يمكن هذا مطلقا.

ـ فما بالك ترتعدين، اترين عليّ شيئا من وقع الخطوب، شدّي جراحك واتبعيني حيث امضي لا أحيد.
ـ وهل يمكنني فعل ذلك؟
ـ ولـم وهـل من كـن قبلك جئن مـن السـماء؟ أو من كواكب غابت عن الأبصار؟
اجبـت سـيدتي: نعم سأشـد الجـراح وأمضي الى سـوح النضـال، بهـذا القلـب الرهيـف، وهـذا الجسـم النحيـف، وسـألحق بركب من سـرن قبلي، فحظين بالشرف، واعتلين قمم العلياء.
انظري نساء المهاجرين والأنصار هاجرن مع من هاجروا، جاهدن مع من جاهدوا، وضحين بالولد والزوج والاب، كل ذلك دأبا لارضاء الرب، واعزازا لرسالة السماء.
ورأيت نفسي أرجع بخاطري خطوات الى الوراء وأحدق في هذه المسافات الشاسعة التي قطعها المخلصون من اولياء الله على ما فيها من العناء والبلاء بثبات لا يماثل، وعزيمة لا تجـارى، وصبر عزّ له مثيل، رأيت الاوائل الاكرمين الذين نشـروا بمناشـير الحديد فذهبوا الى بارئهم أوصالا ممزقة، وأشـلاء مقطعة، لم يتحولـوا ولم يتبدلوا وظلـوا للحقيقة أوفيـاء أُمنـاء، رأيت أتبـاع فرعون من السـحرة الذين رأوا الحق فاتبعوه، واذعنوا لسلطانه، يمتد اليهم بأس طاغوتهم ليقطـع ايديهـم وأرجلهم مـن خلاف ويصلبهـم في جذوع النخـل فـلا ينال ذلك مـن عزائمهـم ولا يفت فـي أعضاد رسـوخهم ويقولونها باسلة جريئة (فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ).
رأيت أصحاب الاخدود (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ

الْوَقُــودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) يخيرون بين النار المتلظية اذا اختاروا الايمــان، وبين الحياة الدنيويــة المنعمة اذا حادوا عن طريقهــم الذي دلهم عليــه العقل والفطـرة والوجدان، فتــدوي لهم صرخة الشــموخ لا العمى والضـلال والباطل، نعم للهدى والحق والرشاد فيقدمون في السعير بوقدة من اليقين أورى من اللظى، وحرارة من العزم أشد من الجحيم.

هلمــي بالمزيد من الآيات الباهرات على جهاد المؤمنات، وبطـولات الثائـرات، فهذه فــي بيت فرعون امــرأة مثلي لها أحاسيســي، عن الحياة، بل هي أدنــى اليها لأنها في بيت لم يعرف غير الترف والنعيم، ولها اقبالها على الدنيا في ذرواتها العالية بأبهى أشــكالها، وأزهى ألوانها، ها هي تكفر بالنعيم، وتــركل برجليها الضعيفتين هذا الــركام الهائل من الحطام. لتقول مرحى للحقيقــة، وتحضن الايمان احتضان الوالهين ثــم لا يصدهــا عنه مــا تعلم انــه مصيبها من كيــد فرعون وغضبــه ممــا رأت مثلــه أو دونه مما أصاب ماشــطة بناتها تلك التي آمنت بموســى فما ثناها عن ايمانها ذلك الوعيد، ولا حــر الاذى ولذع الحديد، حتى قضت على شــر حال من العــذاب في بحره العباب يتقاذفهــا موجه الصخاب، بعد ما رأت أولادهــا يقذفون أمامهــا في التنور، يتلو بعضهم بعضا حتى أكلتهم النار اللاهبة، فما لانت ولا هانت، ولا ضعفت، ولا استكانت.

ها أنا أمضي عبر هــذه الدماء الطاهرة للُاباة الثائرين التي أرهقتها ســطوات الجبارين، وعبر هذه الأكداس الهائلة من الأجســاد الزاكيــة للهــداة الميامـيــن، قد قطعتها الســيوف المواضي لطواغيت عصورهم، ولا أدري لماذا يتمثل لي من

بيـن كل اولئـك ذلك التقي الأبي حجر بـن عدي وهو يحفر قبره بيده والسـيف مشهور فوق رأسه يتربص به ساعة يتم لحـده حتى يـذوق حده، ويأبـى متوسـلا الا أن يقتل ولده وثمرة فؤاده أمامـه ليموت هو قرير العين، ناعم البال بعد خوفه عليه أن يبقى فيغلبه الخوف على دينه.

أتريدين ان أحدثك عن كل ذلك، لا لسـت بحاجة، الى أن أقص عليك المشـاهد الزاكية الماضية، وانما اريد منك أن تصنعي المشاهد.

وأن تكتبـي مع الذين يكتبون في لوح الواقع المشـهود، وتصمدي مع الذين يصمدون فما رسـم لنا الأسلاف الاباة الطريق لننظر فيها، وما رشـوها بدمائهم لنجيل العين فيها، وانمـا ليقولوا لنا سـيروا خلفنا. واتبعـوا آثارنا حتى يتحقق الوعـد الحق الالهي بالمنة على المسـتضعفين بدولة كريمة يطبق فيها حكم اللّه، وتقام عليها شرائع الكتاب.

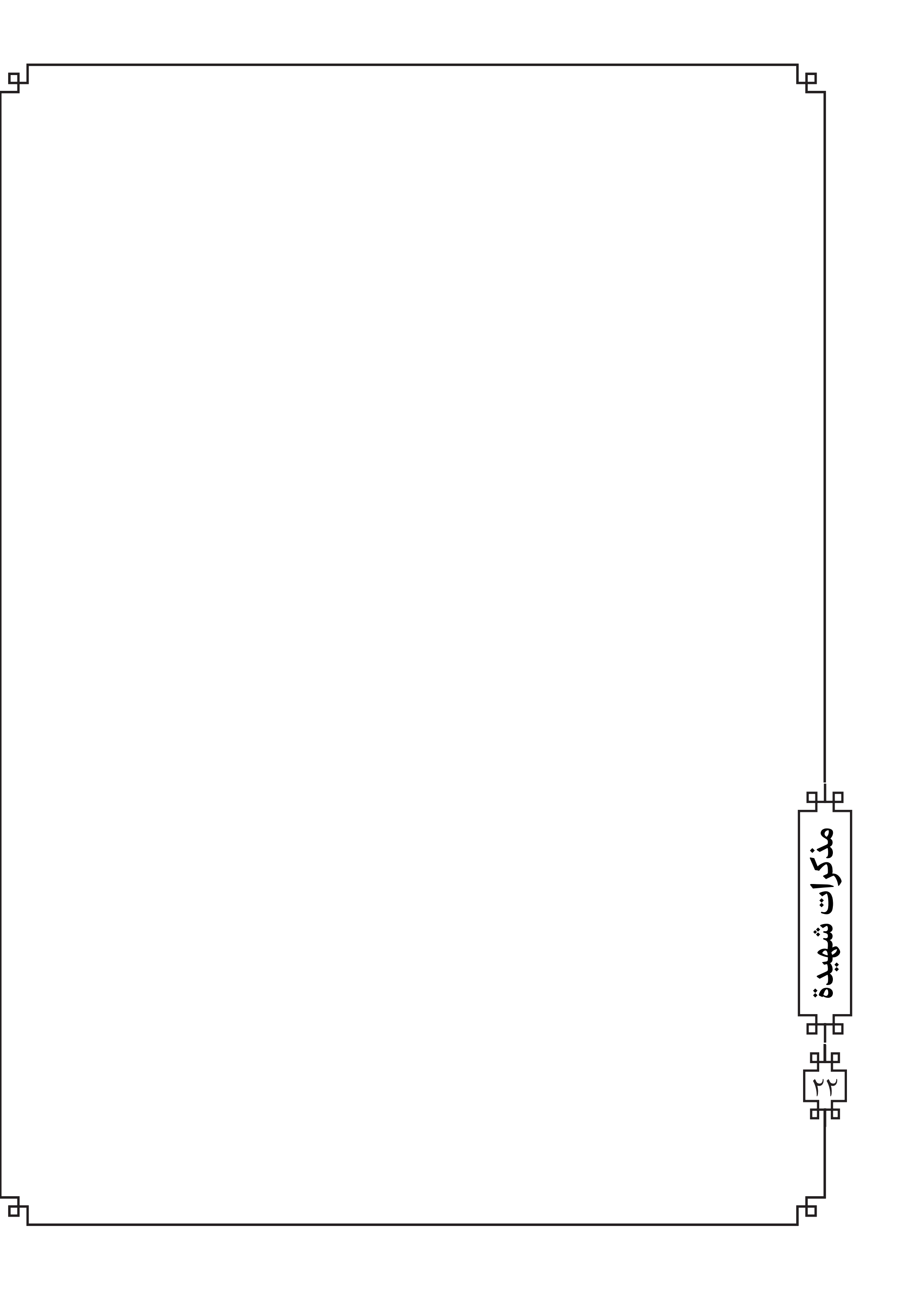
يـاالله لـك يانفـس كـم أنـت ضعيفـة هيـا انظـري وراء هـذه الاسـراب البيضاءمـن الحمائـم البديعة التـي تعانق الفضاءانطلاقا وانشراحا، تنسمي هذا العبير الالهي الذي راح ينعش هذه الاجواءالتي ملاها دخان الضلال وانها نسـمات الشـريعة المحمديـة تريد تبديد هذه الكثافـات الجاهلية، تعالي تنشقي معي اريج الرفض لتري كم هو منعش للصدور مبهـج للنفوس، لا تنظـري بتوجس الى الباب ولا تسـمّري سمعك فيه ان عاد أحمد وان لم يعد فانه الى الخير لا غير، ان عـاد فالى العمل الزكي المرضي، وان لم يعد فالى الجنة والمقـام العلـي، فما عليك فـي كلا الحالين الا السـير على خطاه والاهتداء بهداه، هوني عليك، وخففي من روعك، بل

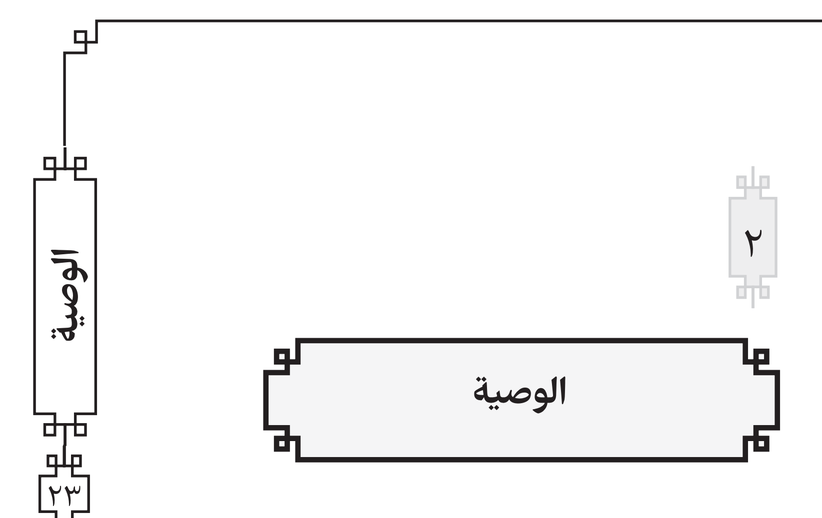
أزيحي عن صدرك هذه الأثقال الباهضة التي جثمت عليه، أثقال الخوف والحيرة.

اوبي الى فراشـك فعما قليل يسـفر الصبـح فاما مقرونا ببسـمة زوجك الظافر العائد واما مشـفوعا بها تنطلق اليك من خلال القضبان ومن وراء الأسوار.

نامي فهذا الصبح يسـعى رويدا يخترق أحشاء الليل الذي لـم تبق منـه الا ثمالة فتذوقي فيها طعـم الكرى، ولا تبقي مسهدة لتثقلي كاهلك المتعب بعناء الهموم ووطأة السهاد.

هدأت صيحات السـأم، وسـكنت أجـراس الالم، وذهب عنـي الاضطراب، وجـرى الدم في عروقي، بعـد ما تصورته قـد تجمد فيهـا، وها أنا تقودني رجلاي الى فراشـي بعد ان قضيت سحابة الليل رهن أفكاري، ومخاوفي وتأملاتي عسى ان ينعشني الوسن بأحضانه الناعمة فأنجو من تلك التباريح الممضـة، وها هو ينقل خطـاه الوادعة الهادئة نحوي يهش لي فأهش له. وأجدني أقع في أسره الحبيب رويداً رويداً.





الوصية

لم أستيقظ الا والفجر قد راح يلح على ما تبقى من فلول الليل يكسـحه بتباشير أنواره، وانه لينشر سناه على الأرجاء فيهتك أسـتار الدجـى لكنه لم يهتك سـتر ظلمة واحدة لم يطلـع عليها صبح الحقيقة فينيرها لي لأبصر ما عجزت عن أن أراه بعين قلبي ومشـاعري، انه مصير أحمد فهو لم يعد حتى هذه السـاعة، ولقد جاهدت نفسي وغالبتها مع اطلالة هذا اليوم الجديد على أن لا تعود الى ما كانت عليه بالأمس مـع الحيرة والفزع، قبل أن اريها عِبـر التاريخ الغابر دروس الحيـاة المتمادية، وأقوم على نشـاط وافر لاسـبغ الوضوء، واصلي لربي خاشعة متضرعة أجد للآيات التي أتلوها حلاوة لـم أعهدها، وللحركات التي أقوم بهـا معنى غير الذي كنت احـس بـه من قبل، ولم يخطر في بالي قط، ولسـت أنسـى كيف اني أحسست عند الركوع والسجود كأن هاتفا يناديني من أعماقي قائلا:

مـن ركـع لله لا يركع للمحن والبلايا، ومن سـجد لربه لا

يسجد لسواه من طواغيت البشر.

وحين أتممت هذه الصلاة الجديدة التي صليتها بمعانيها الحقيقية انتقلت الى الدعاء، وها أنا أجد جمال الصبح الباسم الودود يغمر الأنحاء من حولي، وعذوبة الدعاء الخاشع وسحره تفوقان عذوبة ذلك الجمال في نفسي ومشاعري، وأراني قد سرحت في عوالم النور البهية وأنا اردد دعاء الصباح لامير المؤمنين:

(يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه...) حتى لقد أحسست اني قد تحولت الى نسمة من هذه النسمات العليلة التي تسرح في الفضاء وتمرح في الجو، فلم أعد تلك الرمة الهلوعة تتغشى أبراد الهموم، وجلابيب الأحزان، ولا أدري كيف خلوت الى نفسي بعد ذلك لاسألها عن معنى هذه الكلمات (مجاهد، مجاهدة، مجاهدات) ولا أدري كيف جاء الجواب سريعا كلمح البصر: (جاهدت بذلت جهدها على طريق الحق لاقامة معالم الهدى وحين شدت أواصر جهدها بجهود أمثالها من اخواتها المباركات فقد دخلت جماعة ميمونة من النساء يقال لهن (مجاهدات). ما أعذب هذه الكلمة وما أروع هذا الوسام وما أحلى هذا الاسم، أتراني أكون أهلا لان أحمله وأن أضع شارته الرفيعة على صدري بعد ان أحمل أعباءه وأثقاله، وأؤدي حقوقه وواجباته؟

عسى الله ان يوفقني الى دوام البذل في جنب هذا الايمان بيقين وثبات، والمجاهدة على الآلام العذبة على طريق الرشاد فلا أزيغ عن الحق، ولا أشط عن الصواب، ولا يسلك بي الهوى المسالك الوعرة، والدروب الشائكة.

عسى الله ان يديم هذه اليقظة التي راحت تعم قلوب شبابنا الذين بدأ الفجر ينتفض بهم من تحت دثار الليل الداجي لينطلقوا بآمال عظيمة، وأهداف عالية، لم تقعد بهم في آمال الشباب العريضة، ولا أحلامه الوردية في هذه الدنيا التي تزينت بكل ما يغري من السفاسف، وطلعت بكل ما ذهب باللب من البهارج، هاهم يذهبون بها قبل أن تذهب بهم، ويكبونها لوجهها قبل ان تكبهم لوجوههم، لقد أبصروا طريقهم بناظرة قلوبهم الواعية مليئا بصور التضحيات والبطولات من أسلافهم الميامين، فوجدوا لزاما عليهم أن يديموا ذلك المسير، وأن يجددوا تلك الصور، وأن يعيدوا تلك الملاحم والتضحيات، أليس هذا هو أحمد زوجي العزيز الذي لم يمضي على زواجي به شهور قليلة لم يثنه جديد عهده بالزواج، ولا مشاغل الزوجة الشابة، ولا شأن الحياة الطارفة، عن سعيه وجهاده وبذله لربه ودينه، فلم يفتأ يطوي المسافات، ويقتحم العقبات، ويجوس خلال المخاطر. داعيا الى ربه، هاديا الى طريقه القويم، مبينا زيف هذه الالهة الجديدة، والمبادئ الوافدة، والضلالات الواردة.

وتنعشني نسائم الراحة من هذه التأملات، فيخفق قلبي جذلا، وتطير نفسي غبطة وانتعاشا، وها هي الشمس ترتفع رويدا رويدا في الُافق، والحركة تدب شيئا فشيئا في الأحياء، وما هي الا لحظات من السكون حتى قطعها علي صوت الجرس يرن في سمعي له وقع على قلبي واذني غير ما الفته من ذي قبل، فهو طورا يتمثل لي كشدو الهزار، واُخرى كدوي الرعد، وانهض واجفة القلب، متهيبة، لانقل خطاي نحو الباب، تترأى لي وراءه صورتان، صورة ضاحكة

مؤنسـة، صورة الـزوج العائد، وباكيـة متجهمة، صورة من يخبرني باعتقاله، أو ما يسمى برجال الأمن ليبحثوا في بيته عما يخيفهم، وما أسرع ما انطلق صوتي من الطارق؟

ويأتيني الجواب:

انـا أحمد، وعجـلان ما أفتح الباب ليدخل أحمد مسـرعا قـد عـلا وجهه الاهتمـام، وبدا عليـه إنه يفكر فـي أمر ذي بال، ويلقي عليّ تحية الاسلام، ونظرة عهدتها منه هي نظرة المـودة والوفاء، ثم يمضي داخـل البيت فأتبعه على حيرة في أمره، وحب كبير لاستطلاع مكنونه، ومعرفة ما جرى في غيابه.

جلـس أحمـد وجلسـت قبالتـه يلفنـا الصمت الخاشـع المترقب حتى قطعه هو بسؤاله:

ـ لعلك قلقت البارحة لغيابي وأحسـبك لم تهجعي طول الليل، وأجبته باسمة:

لمـاذا لقـد نمت نوماً هنيئـاً، ولقد كانت أفضـل ليلة في حياتي، إنها ليلة العقل والشعور، ليلة التأسي والاعتبار، لقد عرفت فيها نفسـي وطريقي وموضعي في حياتي، لقد كانت ليلة طيبة مباركة وكان مغيبك فيها لطفاً ورحمةً.

ـ الحمد لله لقد كان غير الذي احتملته، وإن كنت مطمئن القلـب الى حقيقـة إيمانك وصبرك وثباتك هـذا يعني انك توقعـت انني غدوت رهـن القضبان، وان ألسـنة الجلادين وأيديهم قد تعاورت عليّ بالأذى والعذاب، ما أروع هذا إنك لا تتوقعيـن لي الا المفاخر والمحامد التي لا أظنني أهلا لها فتلك من شـؤون المقربين، ثم راح يقـصّ عليّ ما جرى له في غيابه فقال:

لقـد أُعتقل البارحة ثلاثة من اخوتنـا المجاهدين الأبرار، وقد قضيت معظم الليل أدور على بيوت من أعرفهم أُنبههم الـى الخطر المحدق ليكونوا على بيّنـة من أمرهم، أمضيت بقيـة ليلتي في بيت أحدهم وأتيـت مبكرا لأرفع عنك عناء مـا توهمتـي من قلقـك واضطرابك وحيرتـك، ولألقي على مسـمعك وصيتي فانتـي أتوقع ان يأتـي دوري قريبا لأصل الـى ذلك المسـتوى الذي تتوقعينـه لي، بل تنشـدينه لي، وتتمنيـن أن أبلغه، وهو أن يطاردنـي الطاغوت لأنني أُكدر صفوه، وأقض مضجعه، وأسد عليه بعض الطريق الى مآربه اللئيمـة، وامنعه مـا أُوتيت من قدرة على أن ينشـر حبائل المكر والخداع، ويجثم علـى امتنا المقهورة بليل الجاهلية الجديدة، وينيخ عليها بأثقال الشقاوة والحرمان.

لقـد صـرت أرتقب سـاعة أُدعـى فيها الى تلـك الاطواق والأسـوار ولعل الحيلة والاحتياط اللازمين لا يسعفانني فلا أسـتطيع الا أن أجيـب، ولقد وجدت لزامـا علي ان أوصيك فها أنا ذا القي عليك وصيتي فاحفظيها راغبا اليك في الدعاء لـي أن يوفقني ربي للخدمـة والعمل لدينه، وأن يكتبني في الشـهداء السـعداء الذين صدقوا فيما عاهـدوه عليه ولم يخلفوا عهودهـم، ولم يخونوا أماناتهم، واعني بها أدوارهم في الحياة، ومهماتهم في الدفاع عن رسالتهم وعقيدتهم.

وهنا خشـع قلبي، وابتدرت الدمـوع في عيني فعالجتهما علـى ان لا تفيـض حتى لا يـرى زوجه أمامـه دامعة العين فتصغر في نفسه، فلا يراها بعد ذلك أهلا أن تشاركه همومه وآلامه، ولا أن تكون أمينا على وصيته وأمانته.

لقد أخذت مني كلمة الوصية مأخذا كبيرا فلها معنى يشبه

معنـى الموت والفراق الأبدي، وان كانت ليسـت مقرونة به دائمـا فالمؤمـن مرغوب اليـه بالوصية ولو لـم يجد بوادر مفارقة الدنيا، ولا أنس أن دموعي قد سالت فكففتها، فرقّ هـو لها ولم أجد عنـده ما توقعته من اسـاءة الظن بعزمي وصلابتي واحتمالي، وما هي الا لحظات نازعت فيها نفسـي على العودة الى الهدوء والسكينة، حتى عادت هادئة ناعمة راضية وانشأت أقول:

ـ يحـق لـي الآن ان أفتخر وأُباهي بـك، وان أقول صادقة انك تسـير على خطى الصالحين الذين سـبقوك على الدرب وقد اختاروا الا يقارّوا على الضيم، ولا يسكتوا على الباطل، والا يصبروا على انتهاك حرمات الرسالة.

وتبسـم أحمد ضاحكا وهو يهم بالكلام فأرهفت سمعي اللهفـان اليه، ووجهت وجه القلب نحوه، ثم صمت لسـاني صمـت الأمـوات، وجمـدت أركاني جمود الحجر، خشـوعا للموقـف وإعظامـا له، كأن على رأسـي الطيـر أنتظر الوصية وتكلم أحمد فقال:

تعلميـن اننا الان نخـوض حربا ضروسـا حامية الوطيس علـى الباطل وشـياطينه، وقد جـاءوا بكل سـلاح، وأقبلوا علينا بكل حيلة، ونشـروا علينا أحابيلهم وشـراكهم، ونحن بأيد عـزلاء، وقوى جذاء، لا تملك غير قـوة الايمان، وعزم اليقيـن، واقتدار الروح الرسـالية الوثابة، نبذل غاية جهدنا، وأقصـى ما في وسـعنا لدرء هذا التيار الجـارف الذي ابتدر شـموخ حضارتنـا، وإشـراق مبدئنـا بالطمـس والمسـخ والتشويه والتضييع، ليقيم مكانهما معالم حضارة شوهاء، وليـل جاهلية خرقـاء، ولقد كنت ايتها المـرأة أول مقصود

بالمكر والخديعة، وكنت أول مطلوب بسطوة الباطل حيث يـرى فيك اذا اسـتطاع أن يغيرك عن دينك، وأنت السـند المهـم في حمايته والـذب عنه، ويجرك الـى ضلاله، وأنت اليـد المقتدرة التي تذوده وترده، يرى فيك رأس الحربة في كيده، ولقد قالت الصهيونية من قبل:

انها سـتجعلك السـلاح الذي تشـهره في وجـوه أعدائها، والسـبيل التي تسـتطيع منها أن تبسط نفوذها على العالم، فجاءتـك بمزخـرف القول، ومعسـول الكلام، والمسـاواة، والتحـرر، والتقدم، ونبذ الأغلال والقيود (اي الانفلات) كما ينفلـت عمود الخيمة فتتقـوض، وكما ينفلت قطب الرحى فـلا تدور، ولعلك تذكرين حيـن ذهبت رفيقات الجهاد الى بيت رائدنا الصدر تنهلن من نبعه وتسـتضئن بأنوار إرشاده، تذكريـن مـا قاله وانه نبهكـن الى حقيقة الطمـع عند أهل الباطـل فـي إغواء المـرأة، وإحتوائهـا ليكون ذلـك الطريق الميسـر الى إغواء المجتمع وإضلاله وانهم قد قالوا لفتياتنا المؤمنات: ان الانسـانة التقدمية هي التي تنزع عنها أغلال الدين، وتسير متحررة من قيوده.

ولقد قاومت إبنة الإيمان وجاهدت فلم تخدع، وانطلقت تقفو خطى خديجة، وفاطمة، وزينب، والثائرات من بعدهن على هداهن.

ان طريـق الحق هو طريق الأنبياء، وطريق الأولياء وطريق الصالحين، وبكلمـة واحدة طريق الاباة الذين يأبون الا الله وحكمـه، ويأبون الآلهة المزيفة والضلالات الخادعة، اولئك الذيـن أدمى أرجلهـم حر الرمضاء سـعيا الى نصـرة الحق، واكتـوت قلوبهم من أقوامهم بسـعير الصـدود والاعراض

والمعـاداة والبغـي، وتحملـوا للحقيقة كل فنـون الأذى لا يحتويهـا الخيـال، ولا يبلـغ حقيقتهـا غايـة جهـد الفطنة، مـا ان مثلـه ما يقول عنـه المصطفى (ما أوذيَ نبـيٌّ مثلَما أوذيت) ويقول عن بعضه وهو مسـيره الى الطائف وعودته منها بالحسرة (ما كنت أرفع قدما ولا أضعها الا على حجر)، ولكنهم ازاء ذلك كله صابرون مرابطون اذا ألم بأحدهم كيد الكائديـن وبغـي الظالمين صـوب نظره الى بارئـه ليقول له خاشعا متضرعا:

(ان لم يكن بك عليّ غضب فلا اُبالي).

إنهـا سـبيل الله، فإن كنـت تريدين سـبيله فـلا تحيدي عنهـا مهما حفت بها الصعـاب، ومهما اكتنفتها من الهموم والأتعاب.

إنها وسام المؤمن وشـرفه في دنياه ومنزلته ودرجته في اُخراه.

عليـك بطريـق الجهـاد فلا تنكصـي عن سـلوكه، وعليك بسـالكيه فلا تدخري وسـعا في عونهم ومساندتهم والبذل لهم.

لا تبخلـي عـن شـؤونك الجهاديـة الرفيعة وسـعيك في الصـلاح والتعبير على قدر وسـعك وجهدك في صلاح بنات جيلك واخراجهن من عمى الضلالة وعنائها، الى رشد الهدى وهنائه، فلقد عملت من ذلك الكثير المرضي، واهتدت بنور توجيهك كثير من اللاتي اعتكرت عليهن ليالي الضياع.

عليك بقـراءة القرآن، وتدبر معانيـه والوقوف عند آياته، والاسـتماع لمواعظ الله فيـه، والتفهم لوصايـاه ونصائحه لعباده المجاهدين والتأسي بمواقف الصالحين في قصصه،

والتزود من عزائم الثائرين على ضلالات الحياة فيما يعرضه على أبنـاء الخلف الثائر من حماسـة الجهاد عند أسـلافهم العظـام، والنظر الدائب في العاقبتين اللتين يرسـمهما في أمثاله الشـافية لصولة الحـق، ودولة الباطل، تلك في الفوز والفـلاح، وهذه في الاضمحلال والخمود، وتلك هي سـنة اللّٰه: (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً).

أكثري الوقوف عند آيات النعيم لتري انما يرجوه الراجون مـن نعيم الدنيا ليس الا غرورا باطلا ازاء حقيقة النعيم في الآخرة، فتنأى عن نفسـك الرغبة في نعيم دنيوى يصد عن الحـق أو يصرف عـن الجهاد، أو يؤدي الـى الباطل، وأطيلي المكـث عند آيات العـذاب لتبصري منهـا أن عذاب الحياة وأتعابهـا، وعنـاء الجهاد وآلامه ليـس الا هباءة في الفضاء المتمـادي إزاء عـذاب الخلد والعناء المقيـم يوم القيامة، ولتبصـري فيـه هـول ما سـيلاقية هـؤلاء المجرمـون في أُخراهم نكالا ووبالا، مقابل عظيم ما سوف يلقاه المؤمنون الصابرون أجرا وجزاءا، لتري جسـيم الفرق بين نعيم اولئك في دنياهم، وهؤلاء في اخراهم، وعناء هؤلاء في عاجلتهم واولئك في آجلتهم.

فـإذا نظـرت مليا في هـذا رأيت المؤمن فـي راحة دائمة كأن لـم يذق في الدنيا وصبـا ولا نصبا، ورأيت عدوه الأثيم فـي محنـة كأن لم يذق في دنياه لذة، ولـم يجد فيها راحة، ولتجدي بعد ذلك ان عذاب الطغاة يريدون به صرف المؤمن عـن عقيدته وجهـاده ليس شـيئا ازاء عـذاب اللّٰه وعذاب الضمير اذا هو أطاعهم فيما شهد، وان من المؤمنين رجالا ونسـاء يسـتعذبون العذاب المـر في اللّٰه ويروقهـم العناء

الممـض المجهـد له، ويأنسـون في الخطوب على سـبيله، واولئـك الصادقون الذين عرفوا اللّٰه حـق معرفته، وقدروه حق قدره، ووعوا دينه خير الوعي وتفهموه أحسـن التفهم، فبايعوه وعاهدوه على الطاعة والولاء والمجاهدة والثبات، فاستبشروا ببيعهم، وصانوا عهدهم وحفظوا أمانتهم، حتى انقلبوا اليه يجزيهم أحسـن الجزاء، ويوفيهم أُجورهم بغير حساب.

لا تلبسـي ثياب السـواد حزناً علـيّ، ولا تريقي دمعك من أجلـي فيشـمت العـدو، ويألم الصديـق، ولا تظهـري أمام أمثالك بلون من ألوان اللوعة والأسـى لفراقي فيسـتعظمن فـراق الأحبة، بـل كوني لهن قدوة في الصمود، وأسـوة في الصبر والاحتساب، رددي دائما قوله تعالى:

(وَلاَ تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَآءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

لا تنسيني من دعائك لي بالصمود في لهوات العذاب حتى لا أوذي أحدا من المؤمنين، ولا أسـبب له مكروها يحذره، ولا أسـجل على نفسـي ما يريـد الطاغوت أن يسـجله عليّ ويعاقبني له، ولا أكشـف من شؤون عملنا المبارك، ولا عن رفاق الجهاد شيئا يفيد الظالمين وينفعهم.

وتطرق الباب فتنقطع الوصية.

لقـد كان صمتا قليلا ثقيلا بعـد أن طُرقت الباب، خامرت عقلي فيه فكرة واحدة، وأناخت فيه على قلبي أثقال الخوف مـن أن يكون الجلادون قد جاءوا ليعتقلوا أحمد الذي راح يدلـي بوصيته كأنه معهم على موعد فيتركوا بيتي ووجودي خاليين من وجوده، ويقطع أحمد الصمت بقوله مبتسما:

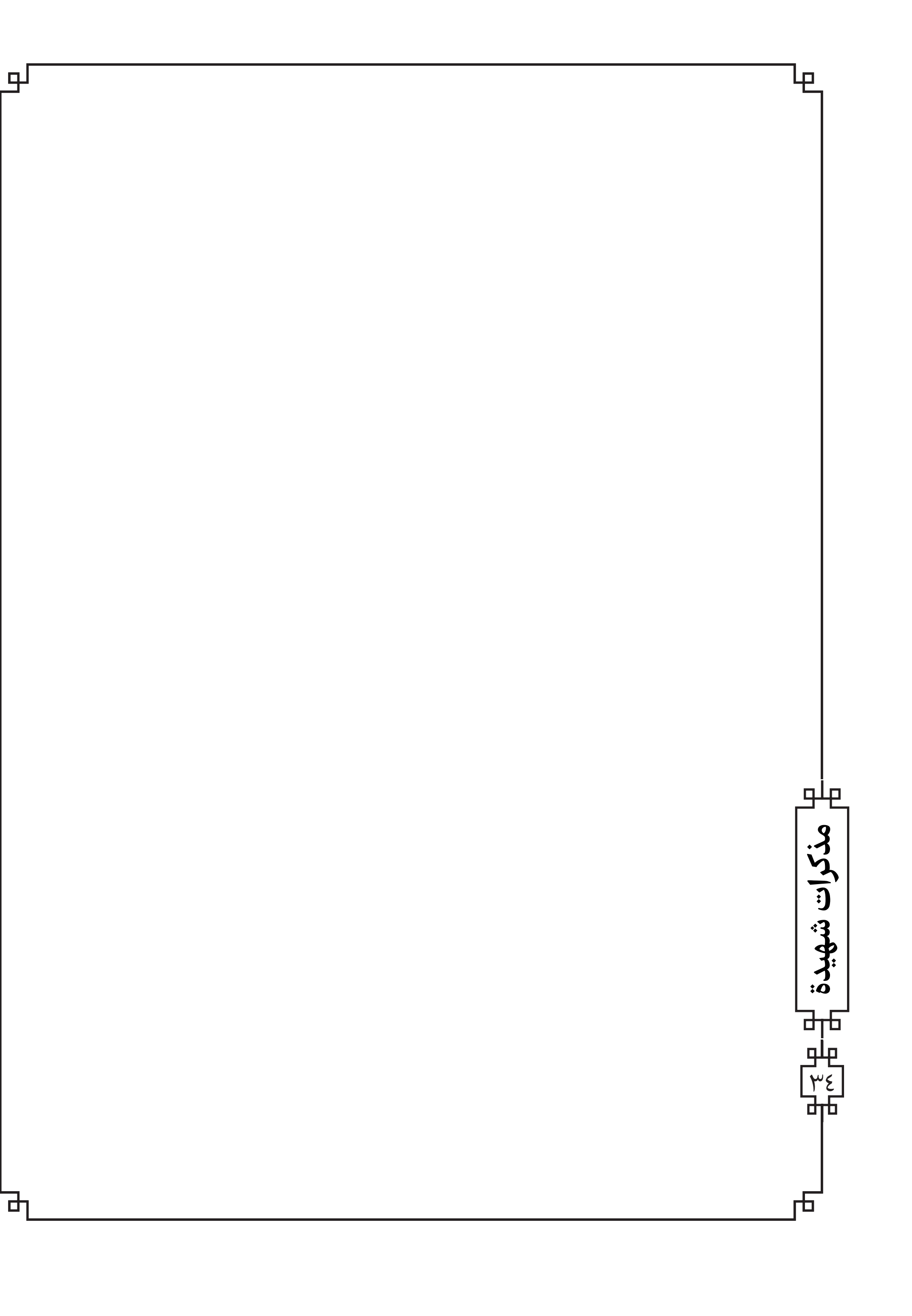
ـ لا تخافي انه أحد رفاق الدرب، واجيبه بهمس خائف:

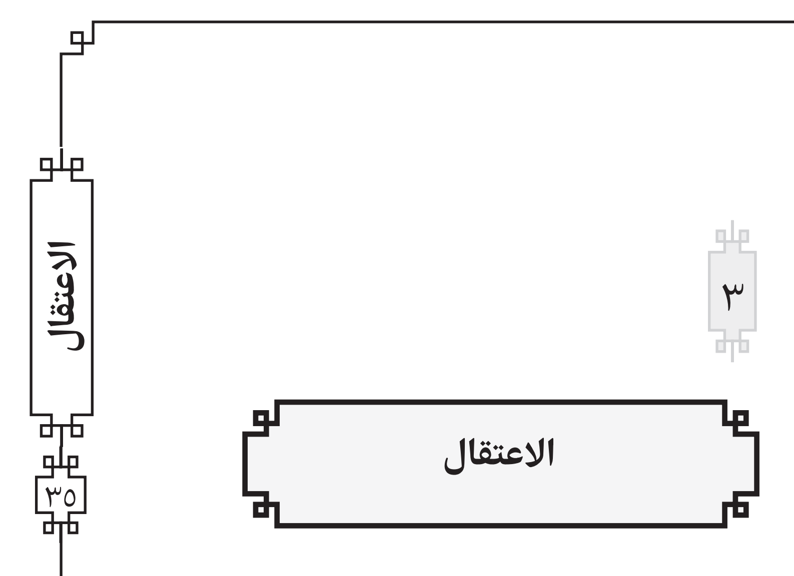
ـ وما يدريك؟

هكذا يحدثني قلبي، وهكذا أظن مما أراه من شأن الجناة في إرتـكاب جناياتهم، فهـم لصوص الليل، وسـراق الأمن والسـكينة في أحوج ما يكون الانسـان اليهمـا، حيث تريد الأبدان أن تسـكن، والعيـون أن تغفو، والقلوب أن تنصرف قليلا عن هموم الحياة ومشاغلها.

ـ حسنا سأرى من الطارق .

ويصدق حديـث القلب، فيكون الظـن صحيحاً، فالطارق كمـا رأى أحمـد رفيـق لـه في جهـاده، جاءه في شـأن من شؤونه...





٣

الاعتقال

انها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وانها ليلة الخميس، سنة الف وتسعمائة وواحد وثمانون، وإنه فصل الصيف حيث يشتد الحر في بغداد. فكانت الأرض تتوقد، وكان الجو يلتهب، حيث تصطلي الأبدان، وتتبرم النفوس، كنا تلك الليلة قد علونا سطح الدار، نلتمس الهواء العليل المبرأ من شائبات الهواء الأسفل داخل الدار، حيث نطفئ الأضواء فيبدو البيت وكأنه قد خلا من ساكنيه، عسى أن يظن لصوص الأمن اذا جاؤنا انّا قد فارقنا البيت في سفر أو ضيافة، ولست أدري لماذا كانت أفكاري تلك الليلة لا تهدأ، ومشاعر الخوف والقلق عندي قائمة على ساقها، فبقيت مسهدة ساهرة لا يغمض لي جفن، ولا تذوق لي عين طعم الرقاد، وأحمد على مقربة مني قد غفا أو كاد، بعد أن قضى بعض وقته يتحدث معي في حديث واحد متشابه متصل، كنا قد بدأناه منذ أيام خلت، إنه عن المعتقلين والشهداء،

وعن عوائلهم، ومن الذي يكفل هذه الاسـر الكريمة شؤون عيشـها، ويدير أمورها، بعد أن غاب عنها حماتها وكافلوها، ولم يغب عن بالنا ان لهذه الاسـر ربا يرعاها، واناسـا اخيارا أبرارا شأنهم الخير، ودأبهم الرحمة، وعاداتهم البذل والعطاء والجود حتى بأنفسهم.

ثـم كان العزم الصـادق على أن نكون مـن اولئك الُاناس الطيبيـن الذيـن يتحسسـون آلام اخوتهـم، ويبذلون لهم، ويسعون في حاجاتهم ويرفعون الضائقة عنهم.

أليس المؤمنون كالجسد الواحد؟

أليس المؤمنون اخوة؟

أليس أقل حقوق المؤمن على أخيه أن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره ما يكره لها؟

اذن لا اكتحلت عين بالغمض الى جنبها عيون يسـهدها العنـاء، ولا سـكنت نفس وادعة وثمة نفـوس تكتوي بحر الحيرة والحاجة، وتعسا لمن أنسته النعمة فاقة المحتاجين، والهته السلامة عن شؤون أهل المحنة. وتطرق الباب طرقا عنيفـا حكى لي منه وجيب قلبـي حقيقة الطارق، وأرتعدت أطرافي، وشـبت نار الحيرة في نفسـي، فمـا الذي نصنع في هـذا الليـل البهيم، وفي هذه السـاعة المتأخـرة منه، وقد جاءنا سـراق الأمن والطمأنينة، عبيد الشيطان، وأعداء الله ليكـدروا صفونا، ويملأوا قلوبنا بالغمـوم والأتراح، ويفرقوا شـملنا وكأنهـم لم يصنعوا شـيئا، بـل يرون ذلـك افتخارا وانتصارا ومكسبا كبيرا وهذا هو ما يسمونه بحماية مصالح الشـعب، والدفاع عـن مكتسـباته، والحفاظ علـى وحدته واسـتقراره، وهذه هـي خدمتهم للوطن، وهـذه هو كل ما

رأت منهم الامة من أول يوم أناخوا فيه على ظهرها الأثقال بالأتعاب، وحتى هذه الساعة حيث السنين الثقيلة الخانقة كأنها قرون متمادية.

الباب يتواصل طرقها وأحمد في غفوته، وقد تلبثت قليلا لا أحرك ساكنا، ولا افكر في أن اوقظ أحد عسى أن ييأس المجرمون حيث لا يرون في البيت ضياء، ولا يسمعون صوتا، ولا يجدون مجيبا، فينصرفون خائبين، ولكني سمعت أحدهم يقول لصاحبه:

انهم هنا ولعلهم فوق سطح الدار وقد اطفأوا الأضواء إيهاما وتضليلا، وسنضطر الى اقتحام الدار مهما كلف الامر.

عندها وجدتني أمد يدي الى أحمد أهزه هزا لاوقظه، وهمست في اذنه:

لقد جاءوا يا أحمد فهيا نتدبر الامر.

ويستيقظ على النبأ، وكأنه لم يأخذ منه مأخذه فجلس رابط الجأش، صلب العزيمة، فقام من مكانه يريد النزول الى طالبيه ليفتح لهم الباب، وغلبتني الدهشة، وعمني الإضطراب فامسكت به قائلة:

ماذا تريد أن تفعل؟

ـ اريد الذهاب اليهم.

كيف تفكر في ذلك؟ ألست تعلم إنك اذا ذهبت اليهم فسيكون مآلك الى إحدى ثلاث، إما القتل، وإما السجن، وإما أن تعود الينا بعاهة.

كل ذلك هين ياهدى وهو عندي أهون من أن أظل هنا واقفا أنتظر هؤلاء الأنذال حتى يكسروا الباب، أو يتسوروا الدار من كل صوب، فيكدروا صفو الناس، وهو كذلك

أيسـر من ان أتسور بيوت الناس فاسـبب لهم ما الله يعلم مـن الأمر بهتك أسـتارهم، والدخول عليهـم من حيث لم يحتسـبوا، إنه امر تأبـاه أخلاقي، ولـو أدى العمل به الى ان أخسـر حياتي، فنحن إنما جاهدنا وأنصبنا أنفسنا وعرضناها للمحن والمخاطر لنعيد للناس أمنهم وقرارهم، ونرد عليهم راحتهم ودعتهم المغْتَصَبين، ونصون لهم بأحكام الشـريعة السـمحاء حقوقهـم المهتضمـة، ومصالحهـم المعدومة، وكرامتهم المضيعة.

كلا لن أتسـلق جدران البيوت الآمنة، أتدرين كم هو عزيز علـيّ أن أعلو سـطح أحد المنـازل فتقوم فـي وجهي امرأة صارخة نادبة، وقد حسبتني لصاً أو طالب فحشاء قد جئتها بالمكروه الكبير الذي لم تكن تتوقعه، وفي أحب السـاعات اليها؟

حسـنا يا أحمد اذن ابق أنـت مكانك ودعني أذهب اليهم واخبرهم إنك خارج البيت في شأن من شؤونك.

وبهت أحمد ثم قال:

ماذا تقولين ياهدى؟ الا تعلمين ان أيسر شيئ عند هؤلاء الأرجاس أن يعتقلوك رهينة اذا لم يعثروا عليّ لتوقعهم أن ذلك سيضطرني الى أن اسلم نفسي سترا لعرضي، وحفاظا على شـرفي، ولقد فعلوا من ذلك الكثير، انهم كثيرا ما يأخذون أزواج المطلوبين اليهم يجعلون منهن سـلعة يسـاومونهم بهـن على الاعتـراف والبوح بمـا لديهم، وأنـت تعلمين ان المـرء يفضـل الموت ألف مـرة على أن يـرى عرضه يهتك أمامه، وذلك أكبر إحراج للمجاهدين، وأشـد عذابا عليهم، فإبقـي مكانك ياهـدى حتى أنزل فأذهب معهـم، ثم كوني

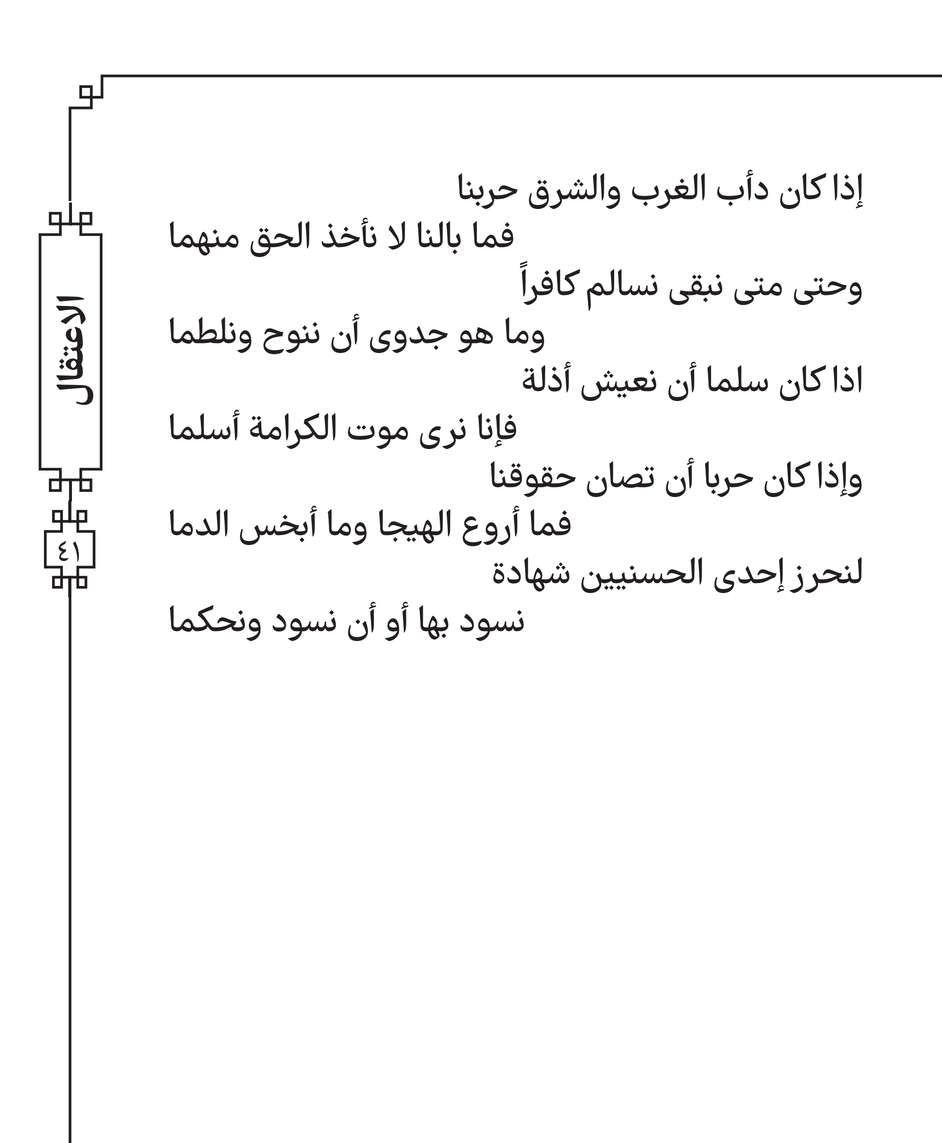
علـى حذر فقد يعودون اليوم أو بعده لإعتقالك لذلك الامر الآنـف، وداعـا ياهدى أرجو أن تكـون وصيتي محفوظة في قلبك، معززة مكرمة بعملك، ظاهرة في سعيك وسلوكك.

وداعـا ياهـدى الـى الملتقى في هـذه الدنيا بعـد الفرج بالفتح المبين، وإنتصار الاسـلام الظافر، أو في الدار الآخرة بابراد الشهادة.

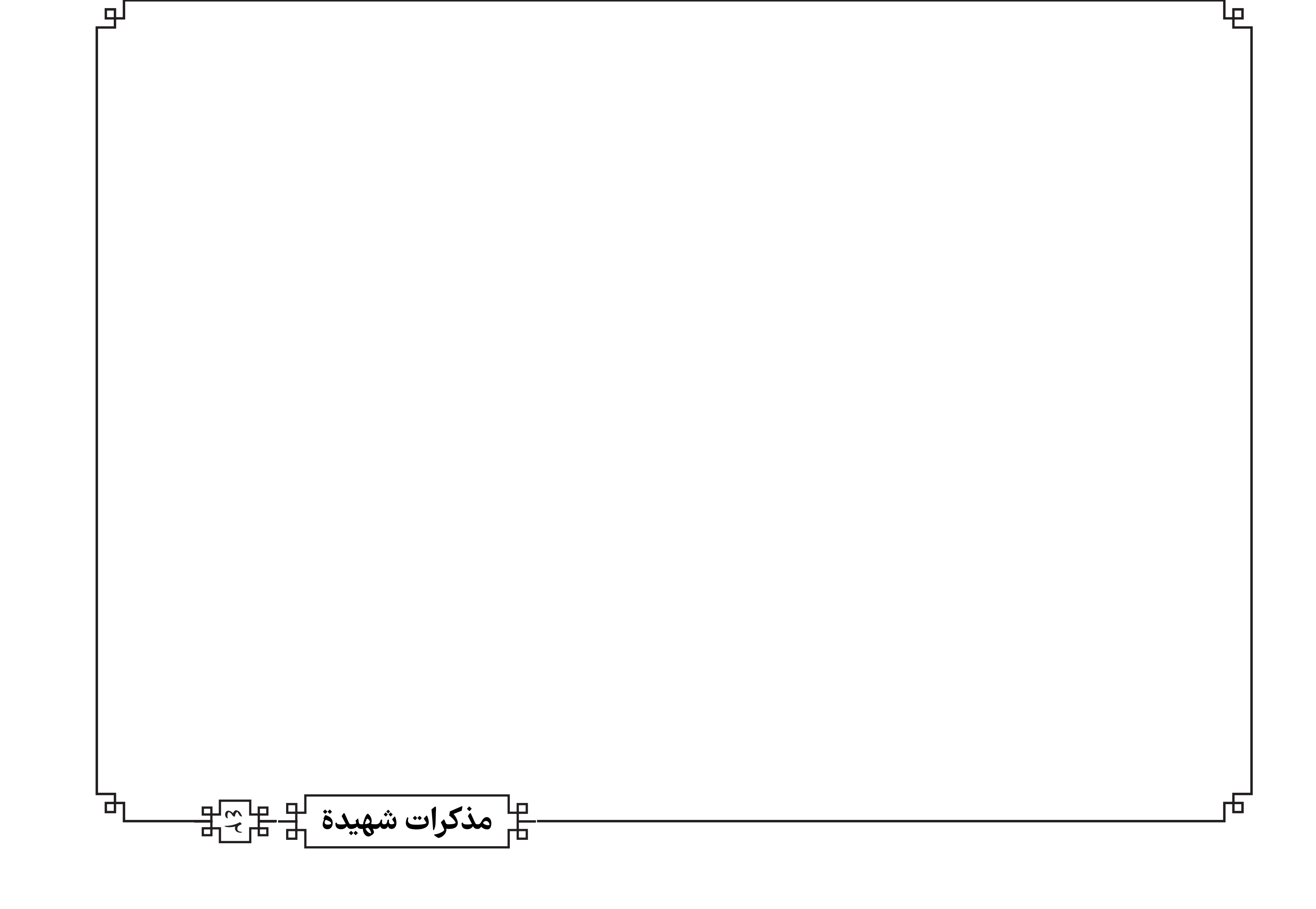
وان هـي الا لحظات كأنما غشـيت عينـي عن الرؤية حتى ذهب منصرفا الى قاصديه، وسمعت الباب تفتح ثم يدخل الباغون الى البيت يعبثون باغراضه، ويفتشون عن مصحف أو كتـاب دعـاء أو كتاب هدى، الا انهم لم يجدوا شـيئا من هـذا فقد كان أحمد حـذرا منهم، ويعرف مـاذا يريدون اذا دخلـوا الى البيـوت، فقد اخفى كل ما لديـه من كتب، ولم يبق اي شيء يحاسب عليه، وعندما لم يجدوا شيئا انطلقوا به غانمين موفورين لانهم حصلوا على طريدتهم التي يبغون صيدها، ثم تنطلق سـيارتهم على عجـل، هنالك اغرورقت عينـاي بالدموع، وبكيـت مليا، وظننتها حالـة من الضعف وعدم الالتزام بالوصية، ولكنني فسـرتها لأهوّن على نفسي هـذا الضعف وهذه المخالفة بانهـا دموع الرحمة والعطف، وانه البر والاشفاق.

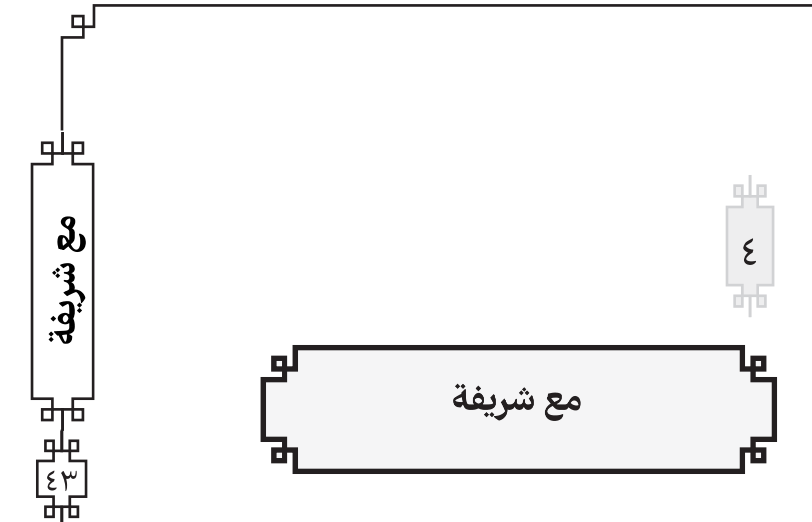
ورحـت أذرع سـاحة الـدار، فوجـدت في أثناء شـرودي الذهني ورقة قد سقطت ولعلها من يد أحمد الذي كان يهم أن يخفيها وقد كتب بتلك الورقة أبيات من الشـعر للداعية السيد الدكتور داود العطار:

جهاداً الى ان يرجع الوضع مسلما
وإلا فلا عرض يصان ولا حمى
أبا الكفر والإلحاد والعهر والخنا
نحاول إصلاحاً ونرجو تقدما
رضينا بفكر الغرب والشرق شرعة
فصرنا لكفر الغرب والشرق مغنما
أطعناهم في كل ما دبّروا لنا
وجُدنا لهم بالبر والبحر والسما
فكان وفاء الغرب هدم كياننا
وتقتيلنا ظلما وإغراقنا دما
ولم يكتف الغرب اللدود بما جنى
على الدين حتى كاد أن يتهدما
فراح يزق الكفر والغي زمرة
تطبق ما يبغي ويأمر كالدمى
تسابقه تدمى الخدود اذا بكى
وتملأ شدقيها اذا ما تبسما
وما كان رب العرش يرضي بشرعة
سوى شرعة الدين الحنيف لتحكما
وليس من الاسلام تحكيم كافر
وما مسلم مَن للطواغيت أسلما
وكان جزاء الشرق تشجيع زمرة
لتنحر قديسا وتنصر مجرما
لها أُذن صماء لا تسمع الهدى
وعين عن الأيات يحجبها العمى



إذا كان دأب الغرب والشرق حربنا
فما بالنا لا نأخذ الحق منهما
وحتى متى نبقى نسالم كافراً
وما هو جدوى أن ننوح ونلطما
اذا كان سلما أن نعيش أذلة
فإنا نرى موت الكرامة أسلما
وإذا كان حربا أن تصان حقوقنا
فما أروع الهيجا وما أبخس الدما
لنحرز إحدى الحسنيين شهادة
نسود بها أو أن نسود ونحكما





٤

مع شريفة

اخـذوك يـا أحمد وأنا راغمـة كارهة، لا حيلـة لي على رد العادية عنك، ولا صد الأذى عن سـاحتك، ولا خلاصك من مخالب الجناة التي انشبت فيك.

قبل قليل كنت معي لان شـأن حياتنا وسـنة الله شـاءت ان أكـون معـك وتكـون معي، كنـت عمـادا لحياتي، وظلا ظليـلا فيهـا، وكنت لك كما تريد سـكنا يؤنسـك، ويسـري عنـك، ويذهب بكثير من همومك. لقد رجونا أن يدوم هذا الانس، ولكن أعداء هذه الامة واجراء الأسياد من العفالقة لا يعرفون معنى لراحة الناس والفتهم وسـكينتهم، واولئك الذيـن لا يجدون فيهم لونا من الإباء عن الخضوع والركون والاستسـلام، وأنكى من هـؤلاء اولئك الذين يلفون لديهم روح الثورة على الواقع الفاسد استبداله بواقع اسلامي كريم.

انه الفجر يقترب وها هو يطلع بوجهه الوضاء على الأرجاء، فيمسـح عن صفحتها الناعمة الوادعة غبش الليل وسباته، وانهـا الآن لسـاعة من أحب السـاعات الـى الله يحب فيها

ان يعبـد عبادة القلب المتصعد، والشـعور النافذ، والحس المتوجه، والعقل السليم من داء الدنيا وهمها.

وأنها (صلاة الليل) معين المحبة وينبوعها، يرده العاشقون ضامئيـن فيصـدرون عنه قد بـردت غلاتهـم. وانطفأت نار الصـدى في احشـائهم، فلاصلـي نافلة الليل التي هي أشـد وطئـا وأعظم قيلا، ثـم ان لي في امور دنياي القادمة شـأنا كبيراً، وسبحاً طويلاً، وقد رأيت من بوادر ما سيأتي به الغد مـن آلامه وهمومه ما فُتـح علينا في هذه الليلة التي أرجو أن تكون بداية لمنعطف خطير.

صليت هذه الصلاة العاشـقة ثـم أعقبتها بصلاة الفجر ثم دعاءه ثم تناولت حقيبة ملابسـي، لاغادر المنزل مغادرة لا أدري أيطـول امدهـا أم يقصر، وحتـى أطمئن أن الجلادين لن يأتوا لاعتقالي، وسوف أتخذ الحيطة البالغة في ذلك فلا أريـد أن أكون لهم يدا أو ظهيرا علـى زوجي، ولا أكون ثقلا باهظا على صدره مع أثقال العناء في لهوات العذاب لهؤلاء المجرمين.

سـأغيب عن بيتي ومسـتقري كما غاب زوجي، فكذا شاء الطغـاة الا يقـر قرارنا، ولا نذوق طعم الراحة، سـأغيب عنه على رغمي متربصة ما تجيء به الايام.

وأشـرقت شـمس اليوم الجديد، وها أنا أراها وكأن شيئا يغطي وجهها المنير، وكأن شعاعها يتقلص عن أمتداده، فلا أحس بنوره وحرارته، لماذا أحس كأن الشـمس قد شـحب لونها، وبانت لي كوجه محتضر يحوم حوله شبح الموت لما ترسـله في النفس بإشراقها من بهجة ومتعة، وبما تتحدث به مع القلب من أحاديثها الانيسة.

أليســت شمس هذا اليوم الجديد هي شمسنا التي تشرق كل يوم فتبعث الدفء في الأجساد؟ والنشوة في النفوس؟ لمــاذا أحــس كأن شــيئا يأخذ بخناقــي، ويمســك بتلابيبي، فيصعــب علّى حتى أن أبلــع ريقي، عيناي لا تكادان تبصران الطريــق كما عهدتهما، وأطرافي ترتعــد، وجوانحي تضطرب ودموعي تسيل، وأفكاري حزينة؟

هذا مــا أحدثه ذهابك يا أحمد مع الزمرة الخائنة الأجيرة مــن أعــداء شــعبك الذين تشــعبتهم الأهــواء الســاهية، وسلكت بهم الدنيا مسالكها الخادعة.

لقــد أخذوك على مرأى مني ومســمعاً الى طوامير العناء، وأطبــاق البلاء، أنت بين أيدي الجلادين تتقاذفك ضرباتهم، وتتعــاور عليك أفانين عذابهم، ارضى لله وأقرب اليه في أي موضع سواه فهو انما يحب عبده اذا ابتلاه فصبر على بلائه، وامتحــن صــدق الايمان عنــده فنجح في الامتحــان، وكم هــو الفــرق بين الميتتيــن، ميتة على الفــراش، وميتة على أيدي الكفرة، وهي مبتغى الراجين، وأمل الاملين، ووســام المكرميــن، ثــم اقبال علــى الــرب بجبين ملطــخ بالدماء، وأوصال ممزقة، عندها تخلو صحيفة الأعمال من السيئات، وتذهب نقيا سليما، قد برئت من الآثام والخطايا.

لا تلمني يا أحمد اذا ما اعترفت لك في هذه المذكرة إنني قــد تأثرت كثيرا، لكنني كنت ابرر حزني الكبير بحزن رســول الله وبكائه على ولده ابراهيم المنقلب الى ربه رحمة وحنانا، وقوله حينئذ:

(ان العين لتدمع، وان القلب ليخشع).

نعــم لا أنكــر انني حزنــت وبكيــت حتى احمــرت عيناي،

وشـرقت بدموعي وما طرق الوسـن لي بابا، وما حط طائره علـى جفني. فإنهـا المرة الاولـى التي افقدك فيهـا، وتفرق الظروف القاهرة مـا بيننا منذ ان إقترنا على ناموس الكون، وسنة الحياة الجارية ورضوان اللّٰه، واجتمعنا في بيت واحد ننشـد ان نعمـر الارض على قـدر طاقتنا آمليـن ان يرزقنا النسـمة التي تثقـل الارض بلا الـه الا اللّٰه، ونصبح الابوين الصالحيـن اللذين ارادهما الرسـول وحبذ على اجتماعهما، وليصبحا البلد الطيب الذي يخرج نباته بأذن ربه.

اتـدري ما اول شـيء ترائى لي وهم يذهبـون بك؟ رأيتك بواعية قلبي لا بناظرة عيني، يحوطك جمعهم وهم مدججون بالسلاح، فشدوا عينيك ووضعوا الاغلال في يديك يخافون بأسـك وهم يعلمون انك أعزل الاّ من الايمان، ومن كتاب مقـدس صغير تحمله في جيبك اسـمه القرآن، ثم أركبوك سيارتهم يتضاحكون غانمين وافرين كأنهم غنموا المكسب الكبير، واي مكسـب لو أنهـم تمعنوا في أمرهم قليلا، إنهم يحفـرون قبور الابريـاء بأيديهـم ويدفنونهم فيهـا فكأنهم يحفرونها لانفسـهم انهم يسـجرون النار التي سوف تأكلهم ويحملون السياط التي سوف تلهب ظهورهم.

الا يسـألون انفسـهم المريضة لماذا يذهبون بك في هذا الليـل وقـد تغشـى الناس أبـراد الامـن والسـكينة؟ لماذا يخلعون قلـوب الوالدات من صدورهـن بأخذهم أبناءهن الصالحيـن الباريـن وفلـذات أكبادهـن المتقيـن من بين أيديهـن فلا خبـر يأتي ولا دليل يدل علـى مصيرهم، لماذا يطاردون الانسـان النزيه بدون جرم شـرعي عقلائي، ما هي الجريمـة التي ارتكبها أمثال أحمد؟ أهو لص؟ أهو مخادع،

أهـو محتكر ؟ أهو قاتل؟ لـم يفعلون هذا أمن أجل عقيدة راسـخة، ومعالـم واضحـة، وسـنة قويمـة، أم مـن أجـل الشـيطان يسـوقهم الى المهالك فيتبعونـه مهطعين طمعا بحطـام العيش الدنئ المليء بالآثـام والذنوب، ودريهمات هن لقاء بيع الشـرف والكرامة، وتحطيم الاخلاق، والوجود الانساني الذي أُريد لهم ان يحيوا فيه؟

جئـت الـى دار أبـي متخفية، خائفـة من دخولـي عليهم والعيون تتربص، والاذان تسترق، ولابد لي من مستشار في هذه الحالة.

دخلت لاودعهم ولاستشيرهم في بعض اموري.

لـم تخف عن العيون المسـهدة في سـبيل مجـد الطغاة خافيـة فقد اعلموا بدخولي الـى بيت ابى، ولعلهم طاردوني منذ اللحظة التي خرجت بها من بيتي.

هربـت من منـزل والـدي أتلفـع جلبـاب هـذه الأجواء المدلهمة الغاضبة، بعد ما داهمنا رجال الارهاب يطلبونني فتسورت بيت جارنا الكريم الطيب الذي كنت قد أخذت من زوجتـه من قبل اذنا أن اهبط بيتهم متى ما همّ الجفاة همّ السـوء وجاءوا لاعتقالي وبقيت ثمة حائـرة مضطربة يمور بي القلق والخوف في تيار هادر وقضيت الليل وأنا مسـهدة لم تـذق عيني طعم النوم حتى مطلـع الفجر فجاءتني امي متخوفـة متخفيـة لتتعرف أمـري، وتعطيني عنـوان احدى قريباتها في قرية من قرى البصرة، راغبة اليّ سرعة المغادرة الى تلك الديار النائية صيانة لنفس الجار ونفسي.

وجدتنـي بعدهـا اوجـه وجهي الـى حيـث أرادت امي أن اهرب، تشيعني بالدموع ووصايا المحاذرة والاعتصام بحبل

التخفـي والاحتياط حتى لا اقع في أيد فجـرة لم ير التاريخ لهم مثيلا.
خرجت خائفة اترقب تصاحبنـي الأفكار الثقيلة وتلازمني كظلـي أشـباح الرعب، تتمثل لـي أحيانا أيد تمتـد تهمّ ان تأخذ بتلابيبي، أو وجوها باسـرة كريهة كأنها وجوه الوحوش الكاسـرة مكشـرة عن انيابها، هربت ولـم أصحب معي مما أحتاجـه الا بعـض اللباس الذي رمته لي اُمـي من بيتنا الى بيت جارنا بعد أن خافت أن يتكرر إيابها وذهابها عنه فيثير شيئا يلفت أنظار المتربصين.
ووصلـت حيـث أبتغي بعد سـفر متعب ثقيـل طمعا في البعـد عن أنظـار الطغاة، والنـأي عن شـرورهم، وقد أبيت أن أدخـل القريـة الا تحت غطاء الغروب متوجسـة على ما تعودوا طارفا من الحيطة والحذر.
وجـدت صديقه في بعض شـأنها قرب بيتهـا وحين رأتني هشت باسمة مرحبة واسـتقبلتني استقبال الوالدة لابنتها، قبلتنـي فـي وجنتـي ونحـري وكأنها علـى بينة. مـن أمري، وأدخلتنـي بيتا صغيـرا من القصب لم أجد فـي تلك المرأة الصالحة شـيئا يني منها، أو يشككني فيها، أو يجعلني أكتم عنها شـيئا وكانت حفاوتها بي وقيامها على خدمتي في تلك الامسية بدون كلل أو ملل.
لقد كان اسـتقبالها لي مثيرا في نفسـي شـدّني اليها شـداً وثيقاً، وقد جاهدت نفسها على أن تقدم لي زاداً لذيذاً مثل ذلـك الزاد الـذي نصنعه نحن سـكان المدن، ثم افترشـنا معا فراشـين بسيطين وألقينا جسدينا المكدودين عليهما، سـمعتها بعد ذلك تتمتم بأوراد حفظتها عن ظهر قلب، ثم

أسلمت نفسها للنوم.

وانسـل سـهم الفجر الى هذه البطاح رويـداً رويداً، وراح يسري فيها ضياؤه الثاقب يمسح عن صفحتها اعتكار الليل وسواده.

جلسـت مضيفتي وكأن هناك من يوقظها في ذلك الوقت الـذي يصيـح بالنـاس انقضـى عهـد النـوم فهيا الـى الجد والعمل، وراحت تتوضأ ثم تغرق في صلاة خاشعة.

واسـتيقظت أنا الآخرى أحذو حذوها فأصلي صلاة الفجر أتبعه بالدعاء.

إنها ساعات لحياة جديدة ابدُؤها هاهنا في هذه القرية مع هـذه المرأة واطفالها، وها أنا أحـس وكأني طائر يتنقل بين السـواقي، ويسـبح في الفضاء، ويحط على الأغصان، ولكن سـرعان ما يعاودني شبح الجناة الذين لا أظنهم يهدأون أو يسـتقرون حتى يعثروا على ما يسمونه ضالتهم، أو عدوهم الذي ينغص حياتهم، وعلى إي حال سإبقى هنا وليس باليد حيلة الى الرجوع الى بيتي وإسـتقراري فأنا مطاردة من قبل المطرودين مـن رحمة الله، وأنـا هاربة بدينـي وعقيدتي، وليـس لي ذنب الا أنني أقول ربي الله، وعليّ التخفي الى أن يأذن الله لي.

مضيفتي تتكتم على أمري وحين سألها اولادها قالت لهم اني ابنة خالتهم، وقد جئت لزيارتهم لاسـتمتع بهواء القرية المنعش وجوها الصافي و خضرتها الممتعة.

لم تكن تسـتقبل أحدا في بيتها وإذا جاءها أحد أخفتني، وحاولت قدر الإمكان ان لايعرف أحد عن وجودي، ولو انني إبنة أختها كما ادعت.

وانقضى الصيف وتلاه الخريف وأنا في بيت شريفة.

هاهي السـماء قد تلبدت بسـحب الكـدراء. وقد انزاحت عنها اشـراقة وجنتها السـاحرة الفياضة بالنـور، وظهر عليها انهـا تريد ان تفيض مما حل في احشـائها مـن خير وبركة، وراح وميض البرق يشع في الأنحاء يخطف الأبصار بضيائه، وكأنه سيف تجرد من غمده لامعا صقيلا.

وقفـت مضيفتي ترمي ببصرها في هـذا الفضاء المترامي فـي هذه الربوع التـي كانت تهلل لهذا الغيـث الذي جاءها سخيا يجود بالخير، ويفوح بالعطاء، وهاهي الأرض تضحك وتهـزج له بصوتها الدافئ الحنون، وتهز أعطافها وكأنها تريد أن تقبلهما قبلة الشكر والعرفان. وبقينا نسمع لهذا الصوت الهائل الـذي يصك الاذان، وكان بـأس الريح يعبث بأصابع القصب الذي قام عليه هذا البيت الذي يظلل من تحته من هاجـرة الحر، ويقيهـم وطأة القر، ودنت مـن الموقد الذي صنعتـه داخل الكوخ تبحث عن جمـرة كامنة تحت الرماد تنفخ فيها علها تجود عليها بشرارة تهبها شعلة تصطلي بها، فعـادت عليهـا الجمرة الجاثمة تحت الرمـاد بجذوة راحت تطعمهـا زادها مـن الحطب فأرسـلت الينا الـدفء أفواجا فانزاحت سورة البرد.

مضـت شـريفة تشـارك الأرض شـكرها وخضوعهـا لله سـبحانه تشـكره على هذه النعمة التي يهبها لعباده، حيث يرسـلهم نطفا وينشـوهم طورا بعد طور، ثم يخرجهم على خلق سوي يتدبرون ويعقلون، ثم ينشر عليهم ظلل الغمام رحمة وعافية.

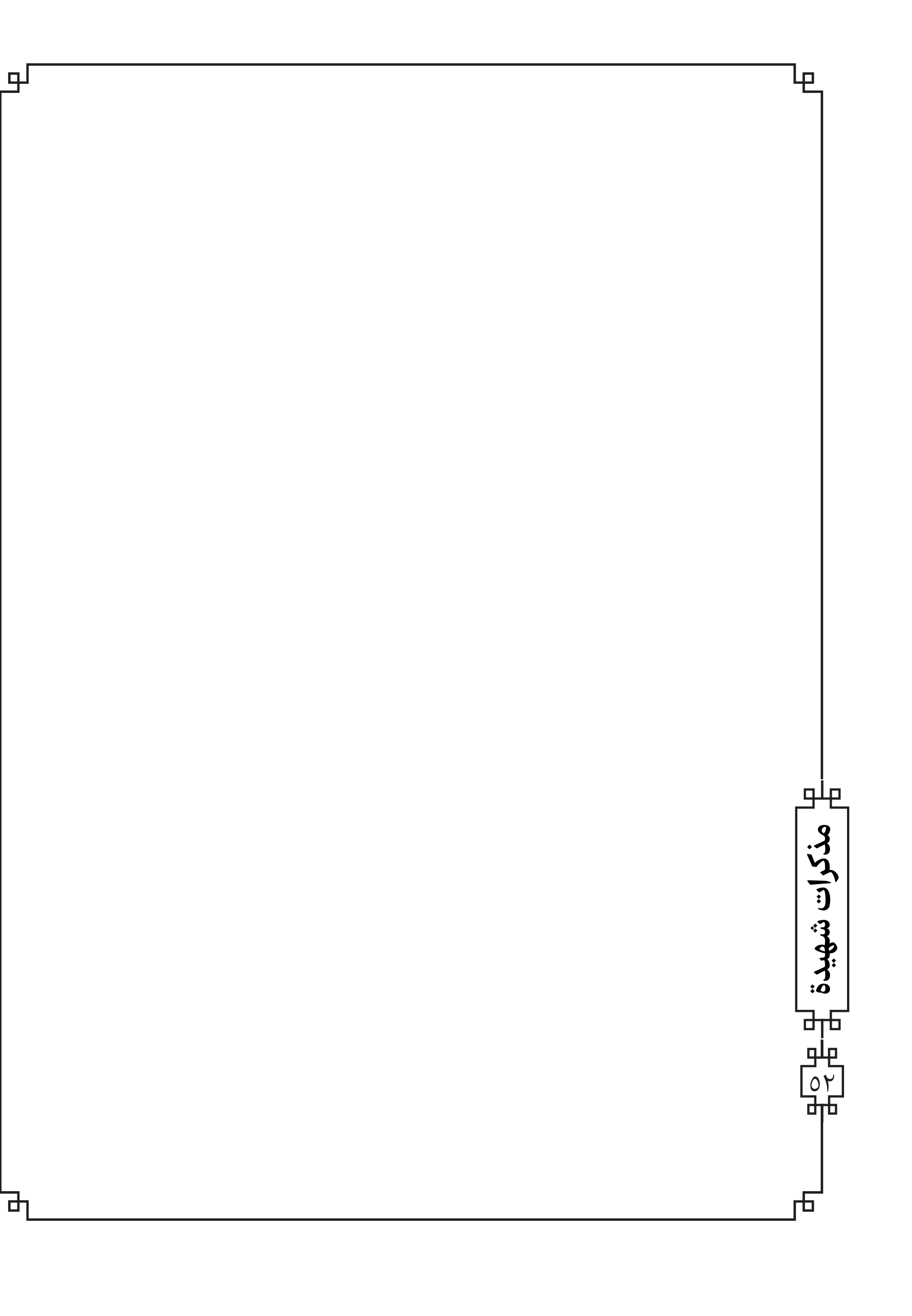
وعلا وجه الليل واشـتدت فحمتـه، وبدت صفحة الأفق،

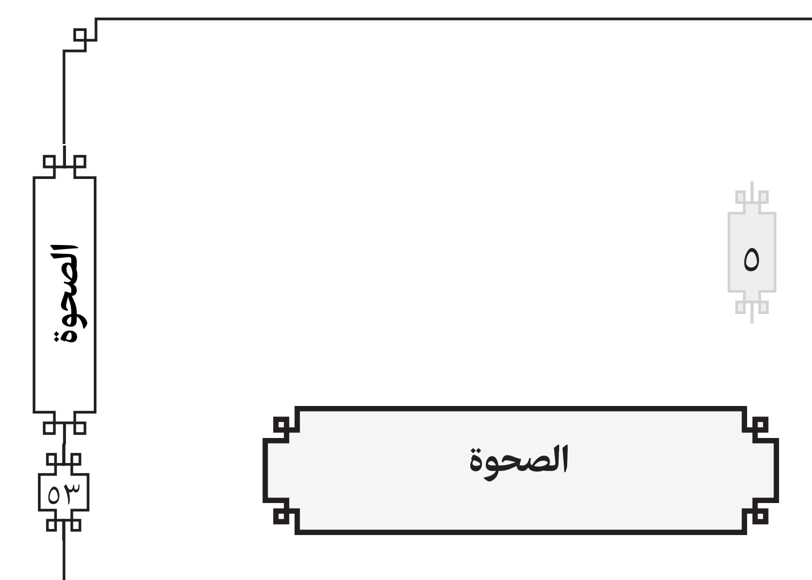
سـوداء مدلهمة الا من لمعان البـرق يخرقها كل حين كأنه صارم مسلول في نقع معركة حامية.

كنـت واياها نجلـس معا والأطفال قد رقـدوا على مقربة منهـا ورحت أدقق النظر في سـحنتنها المشـرقة على ضوء المصبـاح المتذائب، وقد أخذ منها الهم مأخذه وفعل فيها فعله وبدت خصلات من شعرها بيضاء.

قلت في نفسي ما أسرع ما دبّ الشيب إلى رأسها وظهرت التجاعيـد على وجهها وإني لأقطع إنها كانت قبل سـنة علي غيـر هذه الحالة، قبل أن يطلع على قلبها طالع الشـر وقبل أن يصمي فؤادها طائش من سهام الظلم والغدر، لقد تبدل حالها وتغيرت سحنتها، وحتى روحها غدت غيرها فهي مرآة مجلـوة صافية، وتلك هي شـيم المصائب في الحياة وتلك هي مواهبها، أنها لتمر بك فترمسك في الهم والغم، ولكنها قد تعيدك إنسانا _ سوياً _ ببصيرة نيرة، وحكمة نافذة.

ولعلك قارئي الكريم قد اشـتقت إلى أن تعرف شـيئا عن قصـة هذه الصالحة التي تؤويني وتقربني، فلا نقل لك حدثا واحدا من أحداث حياتها المتعبة المكدودة.





٥

الصحوة

انهـا اليوم علـى غير هيئتها وعادتها كل يوم، لقد تسـرب الخوف الى نفسـها التي لم تتعود ان تتوجس من شـيء أو ترهـب شـيئا، فقد الفت هذه الحياة التـي تحياها في هذه القريـة حيث زوجها اما خارج، أو عائد، أو مسـافر، أو قائم على مزرعته يحرسـها ويذود عنها الشرور، فكانت ترقد الى جنـب صبيتها مطمئنة هادئة البال لا يطرق بالها طارق من خشـية أو هلع، ولكنها هذه الليلة على غير شـأنها المألوف دبت الخشـية في نفسـها، وتجمعت لديها مشاهد مفزعة من عويـل الرياح، وقصف الرعد، وظلمـة الاجواء، وإنهمار الأمطـار، ثـم وحدتها، لقد أُعتقل زوجها في تلك الُامسـية وظلت أفكارها تلح عليها حزينة كئيبة مهتاجة، كانت تقول في نفسـها فعلهـا صالح، لقد جـر الأذى الى نفسـه، هاهم رفقـاؤه وصحبـه آمنـون مطمئنون مـع عوائلهـم وفلذات اكبادهـم، الاّ هو، لـو أنه مدّ يد المسـالمة واللين لهم لما

كان الان مجهول المصير وزوجه تفرك أصابع الحيرة تجيل ذهنها الشارد في متاهة المجهول، رأتهم يحيطون به، ويركبونه سيارتهم، ثم ينطلقون فلا يعود الا بعد أسبوع لاتدري ماذا فعلوا به، فقد كتم عنها كل شيء لانهم كمموا فمه بالتهديد أن يبوح بأي شيء.

لقد كان صالح رجلا تقيا سليم القلب، طالما أرق يرعى الوافدين اليه، يقريهم، ويفيض عليهم من الخير الذي أتاه ربه، فهو سخي النفس، حميد الاخلاق، رفيع السجايا، فحين تراه تلمح في وجهه علائم الصلاح، وبوادر التقى، بهلة سنية، وطلعة زكية، ولقد اعتزل الجمع الذي يحيا بينه يفوح بعطره وينشر شذاه، كما ترتفع الوردة من بين العوسج شامخة فواحة، وأمضى حياته بينهم هو فيهم لكنه ليس منهم، فأما تراه قاصدا مزرعته حيث أرضه التي تجود عليه بوافر بركتها أو عائد وقد أمّت الشمس مخدعها، فيسرع ليجلس على مصلاه منتظرا أُفول الغسق ليبدأ صلاته، وأن خالطهم فمخالطة من عنده، بصيرة من ربه، وظل دهره محزونا في هذه الحياة التي يحياها قومه، فقد تربعت بينهم الجاهلية الجديدة تفتيهم، من ضلالاتها فيعملون، وتنشدهم بصوتها المنكر فيسمعون، فلا راع يسيمهم، ولا حكيم يرشدهم، وقد خيّم شبحها المرجف المقيت ينشر اجنحة كاسرة، ومخالب قوية يصفع بتلك وينهش بهذه وما فتيئ بين هؤلاء يحوط صبيته بعينه الدامعة رحمة بهم واشفاقا خائفا عليهم من قارعة الانحراف التي تشعبت قومه واهله.

وانتشر خبر استشهاد المرجع الكبير السيد محمد باقر

الصدر وانطفأت شمس كانت تنير سماء العراق ومن حوله، وخمـد ذلـك الصـوت، وجف ذلـك القلم الراعـف بالعلم و المعرفتـه، وسـكت ذلك القلب العطـوف الخالق بحب الله ورسوله والاسلام.

لقـد ذوى الرجـاء في نفـس صالح لكن هـذا الذبول كان بمثابة الصحوة التي تسـبق الموت، فلم لا يطلق صوته كما أطلـق المجاهدون الاوائل اصواتهم في رحاب البلد الحرام، والبيت الحرام على مسمع المشركين هاتفاً الله اكبر محمد رسول الله.

أليس المؤمن كالجبل الأشم لا تهزه الرياح، ولا الزوابع؟، أليس المؤمن يعود الى رحمة ربه الواسـعة، وفضله الكبير، وعطفه؟

الـى متـى نبقـى كالأنعام يسـار بها الـى مجازرهـا بحزمة حشـيش؟ فلم لا يهب الانسـان المؤمن لنصـرة دينه الذي أضحـى غريـق المحنة؟ لم يظلم عبـاد الله الصالحين؟، لم يعتقـل الأبـرار؟، لـم تحدّ السـيوف؟، لـم والاف من هذه التساؤلات.

كان صالح يتابع هذه الاخبار، وينتظر الفرج ويتأمل ذلك اليـوم الموعـود الذي يحكـم الارض بالقسـط والعدل كما حكمت بالظلم والجور.

كان واقفا في يوم من الأيام مع صحبه ومريديه من أهل قريتـه، وكان الحديـث هو حديث الرعـب والخوف والتقية من الظالم.

لقـد كان صالح يعتـرض، ويحاول قدر الامـكان أن يقول كلمة المعروف ولو كانت فيها حياته، وهذا مما شـدد عليه

الرقابـة، فراحـوا ينكرونه ويتوعدونه، فاسـتطاعوا أخيرا أن يكرهوه على حضور جلساتهم الحزبية، ولقد جر أقدامه جرا وكأنه يساق الى منحره، وبدأت مراسم الجلسة وهو شاخص البصـر، واله النفس، محير الفـؤاد، كان يأمل أن يقولوا ولو رسما باسم الله، لكنه سمع ورأى ما أخرجه عن صوابه، وحدا به أن يطلق صرخـة عظمى صكت جوانب الاجتماع، رآهم ينحنـون وهـم يرددون باسـم البعث، صاح عالياً باسـمك اللهـم رب العالميـن، التفـوا اليـه مشـدوهين خائفين أن يصيبهم بعض الذي سـيصيبه من قوارع الكلام، وقواصف الشـتم والتقريع والتوبيخ، فضلاً عن الركل والضرب، تركوه يذهب الى بيته وهو يصيح دين جديد، واله جديد، أستغفر الله وأتـوب اليه، يـا للهول الفاجعة أين وصـل بنا المطاف والى أين يسار بنا يا رب؟ ترحم علينا برحمتك.

أين أنت يا ابن الحسن؟، متى تطل بوجهك المشرق علينا فديارنا قد عمها الظلام وربوعنا قد طالها الجفاف؟

ركـب المؤمنون الاهوال، وامتطوا المصاعب، لا تأخذهم بالحق لومـة لائم، لم تغمض عيونهم، ولـم ترقأ دموعهم، ولـم تخمد حسـراتهم، اقض مضاجعهم مـا ترى من تبدل الدين، وتغيير السّـنة، ومسـخ ألاحكام، وتشـويه المعاني، فراحوا لا يقعد بهم ليل، ولا يقرّ بهم نهار، فهم نيران تلتهب، ومشـاعل تضيئ، لم يعزب عـن بصائرهم النيـرة وقلوبهم الكبيرة شيئ يسير من هموم أمتهم وألامها.

الجاهليـة ياسـيدي، قد نشـطت في بلـدي، وقامت على سـاق، وهي كالكلب المسـعور العقور، لا يسـلم من شرها أحد.

الناس هنا يطويهم تيار الجهل غرتهم الدنيا وخدعهم الهوى، فهاهم يلجون كل شر، ويقتحمون كل بغي، ويكرعون من كل آجن ويستسيغون طعم الحنظل، وهو يشل أفواههم، ويقطع أمعاءهم يسيرون في المتاهة، ولا يرون أين منتهاها، يجيبون داعي الباغين خشية الموت وهو ملازم لهم كظلهم، يهربون منه وهو لصيق بهم، وهاهم يسيرون الى حتوفهم، ولم يفكروا بالزاد ليوم الورود.

صرعتهم الشهوات، فأردتهم بلا عقول، نسوا حظهم من آخرتهم، ولم يشغلهم الا هذا الحطام الزائل الذي هم عليه مزدحمون كما يزدحم الذباب على القاذورات.

إن قلوبنا يا سيدي تهواك ويسعرها الشوق الى لقياك، وترغب في أعماقها أن تكون كما تريد لها، ولكنها لضعف إيمانها، ضعيفة عن مصاولة الهوى، قواها الخيرة محطمة مشلولة فهي صريعة الشهوات، لا يقوم فيها خاطر زكي، الا وتقمعه رغبة جامحة، وغرض زائل، فيصميها ويذهب بها.

أنا إبن هذه القرية ولدت وترعرعت فيها، ونمت قواي واشتد ساعدي من مائها وهوائها، وهاهم أبناء جلدتي فيها يتألبون عليّ، ويهربون مني لأنهم يخافونني على دنياهم، كما أهرب منهم، لانني أخافهم على ديني، أراض أنا عن نفسي وعن فعلي بالأمس؟ أكانت قدماي تحملانني أم أنا كنت أحملهما؟ أهما جرتاني الى ذلك الموضع الدنيء، أم أن نفسي هي التي ساقتني اليه؟ أوليست مواطن البغاء هي أحسن حالاً من هذه الأماكن التي ملئت بالشرك والالحاد، والمسلمون يرتادونها ليتزودوا منها تعاليم الجاهلية ليعودوا مشركين من حيث يشعرون أو لا يشعرون، لقد

كنت بعيد الجســم والنفس عن الاولى بعد المشرقين نافراً منهــا تنافر الجديديــن، وقد لوثت نفســي بالأمس بدخول الثانية التي فاقت أختها ضلالةً ورجساً.

الناس حولي دارت بهم الأرض الفضاء، وماجت بهم الدنيا، مادت أجســامهم إرتجفت أنحاؤهم، أسدلوا أجفانهم حين ســمعت صيحة الحق التــي تقول لهم انتبهــوا من غفلتكم وعماكم ان ربكم الله، ولا ركوع الا له، ولم تحدث صرختي فيهم شيئا من تغيير، ولم تحرك فيهم داعي الهدى والرشاد.

عــاد صالح الى بيتــه، وقص أمره على امرأتــه التي راحت تســمع له، وقد علت وجهها غبرة التألم، وسرى في أنحائها اضطراب، فهي مســمرة البــال به مصوبــة العينين تجاهه، صاغيــة الاذنيــن الــى مــا يقــول، كانت تخــاف عليــه هذا الموقف، وتتوجس عليه منه اشــد التوجس، وتخشى عليه هــذه العاقبــة، أما هو فقــد كان يحس كأن ثقــلاً باهضا قد انــزاح عن كتفه فهو خفيف الكاهــل، هاديء البال، لكأنه لا يشغله شاغل.

تبســم لها بسمة لم تعهدها، وقد راح وجهه يشرق إشراق الصباح، أدناها منه فدنت وجلة حذرة، وقد راحت بســمته الندية المتلألأة تنير الأفق المظلم أمام عينيها لهذه المحنة التــي أطبقت كثافاتها عليها ســوداء مدلهمــة، وأخذ بيدها التي مشى فيها برد الهواء والسكينة وانشأ يحدثها:

الان اكشف لك عن ما في نفسي، الان اكشف لك عن كل ما يدور في خلدي.

اعلم يا عزيزتي أنني ســوف أعتقل، وســوف اعدم وبذلك ســوف ألبس تــاج الفخــر الذي طالمــا حلمت به، وســوف

أتوسم بوسام العز الذي كنت أتمناه.
سوف تصعد روحي الى بارئها تشتكي ظلم عباده الجائرين عن قصد السـبيل، المهطعين لداعي الشـهوات، الجاثمين تحت أثقال الخطايا، الراكضين خلف اللذّات والأهواء.
صالـح في هـذه المرة قـد أعّد نفسـه للصولـة والجولة، وأصبحت الحياة الباقية أمامه قاب قوسـين، فلم لا يوضح لامرأتـه ما عرف هو ولم تعرف هي، لم لا يبين لها الحقيقة عما يجري؟
نعم انها امرأة سـاذجة ولكنهـا مؤمنة ومتفهمة وتود ان تعـرف وظيفتها فـي حياتها كامرأة مثل بقية بنات جنسـها، قـال صالح موضحـا لزوجته ما لا تعرف هـي، وهذه المرة بصراحة ومن دون خدع أو تمثيل:
ان هذه الحكومة يا شريفة حكومة جور وظلم، لقد مسخوا عقائدنا، وضيعوا علينا وعلى شبابنا مسلك الرشد والصلاح، أخفـوا علينا خبر الحقيقة، لم يرعوا لنـا محرماً إلا إنتهكوه، ولـم يتركوا لنـا فضيلة إلا ضيعوها، أتقـرّ ضمائرنا بعد هذا السـكوت لتفرغ أوقاتنا للعبـادات العقيمة، هيّئي نفسـك فعما قليل يسـفر الصبح، صبح النصر ليقمع ليل الشيطان، وتسـري روح الثورة الظافرة في هذه الارجاء، وينبعث نداء الحسين من جديد.
جرت دموعها على خديها وأنشأت تقول:
لقـد بت أسـتيقظ من نـوم الغفلة وأطرد عـن قلبي تلك الأوهام والرؤى المتسعرة، وأهش عن ناظري بنور البصيرة، هذا القتام الذي ينشـره الشـيطان من حولي فيسـدل نقابا كثيفـا دون أن أرى الحقيقـة الماثلـة، وفـق الله خطـاك،

وسددك لأمور آخرتك، وهداك.
استبشـر وجهـه، وتهلل فرحا وهو يراها تنـزع عنها ثوب الحزن، وتلبس لباس التأسي والصبر.
ويقـوم مـن مكانـه وافر النشـاط، قـوي الهمـة، ماضي العزيمة.
أمـا هي فقـد أثر فيها انشـراحه كثيـرا، وغيّر فيهـا كثيرا، فتبدلـت حالهـا، وتغيـرت سـحنتها، وابتهجت نفسـها، ثم قامت نشيطة لتعدّ طعام العشاء وكأن شيئا لم يحدث.
وقضيـا تلك الليلة في تناج واصـب، فهذه صور الماضين تتـرى أمام ناظريهما، وهذه فجائعهم تتوالى امامهما دامية مؤلمـة، فتزيدهما صلابة وعزما على السـير على هذا النهج الواضح، والمحجة القويمة.
وأشرق الصباح فأطل على البطاح بنوره الوضاح، وانساب ضوؤه على هذه الظلمة فازالها عن وجه البسيطة، وخشعت نفس صالح وسـالت دموعة عندما لاحت له خضرة الارض التي سواها بيده، ونفخ فيها من روح جهده وسعيه، وبدت لناظره ناضرة زاهية، لقد حزّ في نفسـه ما ستؤول اليه هذه النضـرة الاخـاذة اذا ما دهاهـا العطش فسـرى الذبول في أنحائها، حين يغيب عنها كافلها وراعيها في أطواق الظالمين وكبولهـم، وومض في بالـه خاطر أنّبه على شـعوره باللوعة لأرضه الصادية تريد الماء، تروي ظمأها وجاءه حديث من نفسه: ودينك يا صالح يريد منك الدم يبل به ظمأة، ويقيم عـوده، فليس غير الـدم يعيد الحق الى نصابـه ويرد الكيد الى نحره.
ومضت سـاعات اليوم تتلو بعضها بعضاً وهو ينظر مقدم

الغواة ليجروه الى مباءة العذاب، وليس بوسـعه أن يتخفى أو أن يهرب فالعيون تترصده، وكل القرية قد أصبحت عيناً عليه ورقيباً.

وطفّلـت الشـمس للمغيـب، وولجـت مخدعهـا بعد أن توشـحت وشـاحها ألقاني لتتدثر بجلباب الظـلام، وتتغطى بدثـاره، وجـاء الجنـاة العـادون، وولجـوا دار صالـح غيـر مستأنسـين ولا مستأذنين، وقام هو لهم ثابت الوطأة، رابط الجنـان، لـم يخالجه الخـوف، ولم يخالطه الجـزع، وجروه بعنـف ومضوا به وامرأتـه قائمة تشـيعه بنظراتها وصبيتها الـى جنبها قد أخذ منهم الموقـف المريع كل مأخذ، ودهى قلوبهـم الوادعـة بلوعة لـم يعرفوها من قبـل، وعذاب لم يطرق بابهم قط.

وانطلقت بهم السيارة تلقف المسافات، ولم تستطع عندها شـريفة أن تحبس دمعة أغرقت عينها بالدمع ففاضت، ثم مسحت عينها بكمها ورددت:

(اللهم انصر الحق وأخذل الباطل).

نامت تلك الليلة مع صغارها راضية غير ساخطة، وقامت فيهـم مقام أبيهم تحوطهـم برعايتها، وتفيـض عليهم من لطفها، وتهش لهم بقلب قد أذاب المشـهد نصفه، وتمسح على رؤوسهم بيد ذابلة حانية.

وتجـري أمام قلبها المشـاهد، فها هو صالح في محبسـه لم يذق طعما للطعام ولا للنوم بين سـورات العذاب، وفي لهوات التعنيف والتكبيت والسـباب والضرب، فلا يلين، ولا يضعف، بل هو ثابت صامد، كأنه قد قُدّ من صخر وهي في لياليهـا المقبلة تتراءى لهـا، هكذا إذن تقلب الأيام وتبدلها

لكنهـا على كل حال راضية قانعة صابرة شـاكرة، وانها الآن مثلجة الفؤاد كأنها لا تحس أثرا للهم في نفسـها على عكس المها حين أُعتقل زوجها أول مرة.

لقـد احسـن صالـح معها صنعـا حين كشـف النقاب عن عينيهـا لتبصر الحقيقة، واوضح لها مسـلك الرشـد وأنارلها الداجيـة بضياء الاسـتبصار، وأزاح عن الأفـق أمام ناظريها ظلمة الحيرة التي كانت تتخبط في عمياتها.

لقد تذكرت شـريفة تلـك الليلة العاصفـة المدلهمة التي اعتقـل فيهـا زوجها أول مـرة، وكيف انها ظلـت بعده أرقة العين، دامية الفؤاد.

مرتجفة خائرة القوى.

أما الآن فقد أضاء الصبح لعينيها اللتين غشاهما الوسن، أولعـب بهما فـأراد أن ينقلهما الى أحضانـه والى جانبها نار تتوقد، ولهيب يسـتعر، وهي على حافـة الهوة تهم ان تقع فيهـا، وهي مـع ذلك سـاهية لاهيـة يطويها تيـار الجهل، ويأخذها الى لجه الغامر.

ها هي تتقشـع سـحب الدهماء من أمام ناظريها، وتبزغ شمس الحقيقة الضاحكة تقول للمؤمن:

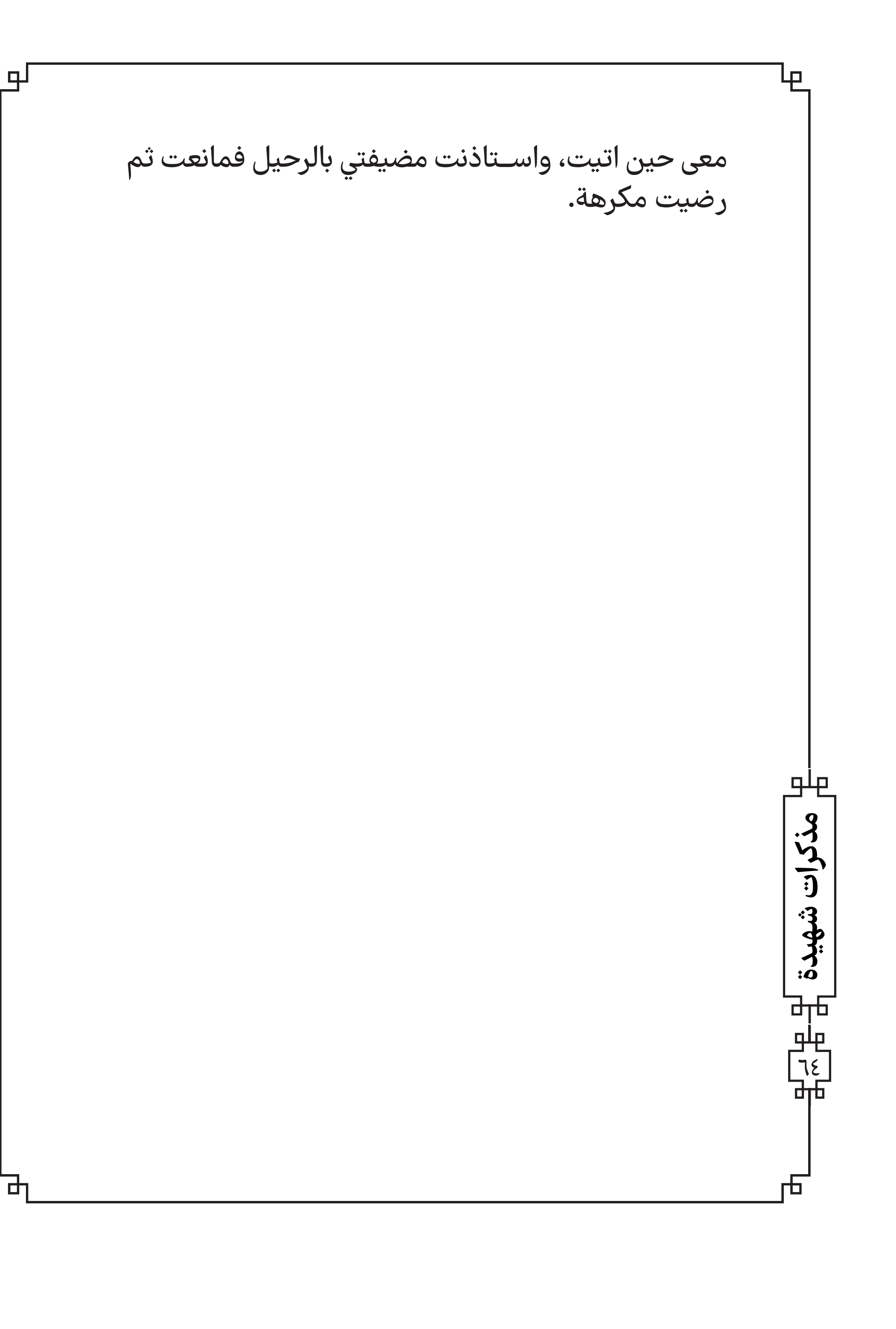
هيا الى الراحـة الدائمة، والدار المطمئنـة، والزاد الوفير، حيـث لا سـغب ولا نصب، حيـن تبصره فجائـع الماضين مـن ملوك وجبابرة كانت لهم العزة والمنعة لبسـوا الحرير، ومشوا على الوثير، واحتسوا الكؤوس المترعة من السعادة الزائلة حيث اتبعوا سـلطان الشـهوات، فأخذتهم سـكرتها، حين أولجتهم المهالك وهاهم يفترشون الأرض ويلتحفون التراب، قد أكتحلـت العيون المترفة منهم بالرمل، وملئت

أفواههـم الناعمـة بالـدود، يـأكل بضة أجسـادهم وينعم بالسـير علـى أجسـامهم التي غـدت مزقا مبعثـرة الأنحاء، منثـورة الأحشـاء، فأين مـن نعيمهـم الذاهـب، وملكهم الزائـل؟، ليس أمامهـم الآن الا الذين ظلموهم، وسـلطوا كلابهم تنهش لحومهم وأكلوا ما قسم الله لهم، فحرموهم حتى شم النسيم.

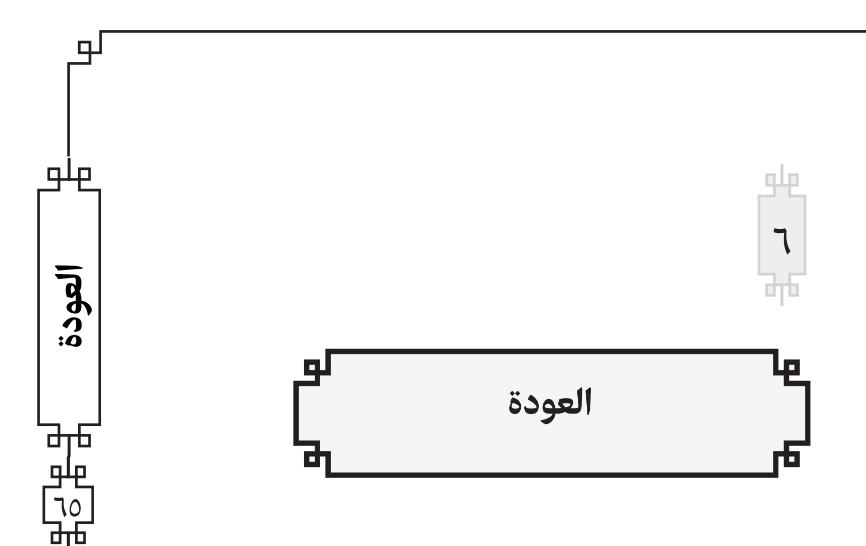
فأيـن هؤلاء من اولئـك تعذبوا قليـلا فنالهم حظ عظيم فرضوا القرار وصحبوا الاخيار فلا اسـتكاك لاجسـامهم، في ضجعة اللحد، ولا عرفوا ضغطة القبر ولا حسـابه، وسـؤاله، لأنهـم اختاروا عذاب الدنيا علـى أن يربحوا الآخرة فصاولوا أهواء انفسهم، وسهدوا عيونهم، وأقضوا مضاجعهم بالذكر والعمـل الصالـح فأخذتهـم المشـيئة التـي عرفـت فيهم النزاهة والسـعي والنية الخالصة الى أيسـر السبل وانجحها قـرارا، وتمضي الأيـام ولا خبر عن صالح الا حديث نفسـها الصادقة تقول لها:

قـرّي عينـا ولا تبقي مسـهدة وتحملي ثقـل الأمانة التي ألقاها علـى كتفك، ارعي هؤلاء الصغار فقـد أصبحوا أيتاماً فليـس لهـم معيل سـواك، ولا ملجـأ عداك، فـان رضيت المصير فإنك مع السعداء والا فليس الا الشقاء.

مضـت أشـهر وأنا مـع صديقة امـي و عائلتهـا مخدومة مكرمة لكن أحس بالضيق احيانا بوجودي هناك ولا خبر لي عـن رفاق دربي، وهناك هاجس فـي داخلي يقول: الى متي سـتبقين هنا؟ احسست انني في حلقة محكمة سدت علي منافذ الهواء. قررت العودة الى اهلي واخوتي وأنا في اشـد الشوق الى سماع اخبارهم وقمت لاحزم امتعتي التي كانت



معى حين اتيت، واسـتاذنت مضيفتي بالرحيل فمانعت ثم رضيت مكرهة.



٦

العودة

وصلـت الـى بلدتي التـي فارقتها وأنـا محملـة بالهموم، فزعة من شـبح اسمه الاعتقال الذي يمثل الهتك والتجاوز العابث على ايدي شـر خلق الله من شـراذمة باعوا الضمير والوجـدان بحفنة مـن الدراهم القذرة. واليـوم ها انا اعود الى مدينتي ولا يزال الخيال يسـرح بي الى تلك الافاق من المحبـة والوفاء مـن زوج حبيب، قد فقدته بعد معاشـرة ايام قصيـرة ذقت فيها حلاوة الانس والسـرور، فهو الزوج الواعـي الملتزم الذي احاطني بعنايته ورعايته حتى انسـاني ما يقال عن الرجال من انهم متسلطون يرهبون نسائهم، ولا يعرفون لهن اية قيمة، وليس غريبا عن احمد ذلك التصرف الحسـن وتلك الاخلاق الفاضلة فهو ابن الرسـالة التي تربى فيها، ونشـأ على مُثُلها وقرأ سـيرة اوليائهـا. انه ابن القرآن، الدسـتور الالهي الـذي أنقذ المرأة من وهدتهـا، ورفعها الى اعلى مكان وكرمها تكريماً.

رحت افكر الى أين أذهب؟ وأين سـيكون محط رحالي؟

أأذهب الى أهلي وعيون الجناة تترصد بيتهم، وهل سأجد عندهم ما يحميني بعد الذي حدث. أأذهب الى بيت صديقتي حميدة لعلي أجد عندها مفزعا ومأوى؟

وخطر لي خاطر لا أدري منشؤه وهو من يدري أنهم يطاردونني الى الان، بل لعلهم غفلوا أمري ونسوا، ولعل ما توقعته ليس صحيحا فالاسماء تتشابه، والعناوين كذلك، ثم أنا لم أفعل شيئا يضر بهم الا هذا الجلباب الذي ارتديه وهذه الطرحة التي على رأسي تخفي شعرات رأسي، وهل هذه جريمة اعاقب عليها؟ واخيرا قررت أن أسلك الطريق الثاني، فلعل صديقتي حميدة تستطيع أن تذهب الى أهلي تستطلع أخبارهم.

ومضيت اليها ومن حسن حظي انها كانت موجودة عندما طرقت الباب، وهي من استقبلني. رأتني فهشت لاستقبالي وأدخلتني الدار بسرعة تحاول أن لا يراني أحد من أهل البيت، فاحسست أنها تحمل الكثير من الاسرار أو الانباء.

قالت:

ارتاحي حيثما اراقب الوضع في المنزل، ثم ذهبت على عجل، وبعد مدة وجيزة رجعت اليّ، وراحت تقص علّي حكايات جديدة قد جرت اثناء غيابي عن المدينة.

وكانت اخبارا متوقعة لديّ، لعلمي ان الجبابرة لا يتنازلون عن مقرراتهم القذرة في التنكيل من أجل السلطان الذي يطلبون، والمنصب الذي يودون حتى وان هلك الناس باجمعهم.

لقد اعتقل فلان، واعتقلت فلانة، وافرج عن فلان وافرج عن فلانة، وأنا اقول في نفسي لقد استشهد فلان، وماتت

فلانة.

وماذا بعد قالت:

الكارثة هنا يا عزيزتي انه أخي رعد قد ضل سواء السبيل، الم تعرفي ذلك؟

قلت منفعلة: ماذا؟

قالت: نعم أخذوه وأوسعوه ضربا، شوهوا معالم جسمه ونفسه، وعادوا به الينا قد مسخ مسخا، وها هو الان كلب يلهث لهاثهم، يأكل من جيفهم، ويشرب من مستنقعهم، وينام على نارهم، وهذه الكارثة وما أعظمها، ألم تري انني بهتُ لرؤياك لانني خفت عليك، و أخشى أن لو علم أخي بك سيفعل معك فعلة الأنجاس فيشي بك الى رجال الإرهاب، فيأتون لاعتقالك، وما أسهل أن يفعل.

_ اتقصدين سيكون اخوك رعداً ابن طوعة التي آوت الشهيد مسلما ابن عم الامام الحسين فوشى ابنها به الى ابن زياد، وتسبب في قتله مع معينه وناصره الشهيد هانئ بن عروة؟

ضحكت وقالت: هكذا اصبحنا اذن نعيد سيرة الماضين.

لقد كان لهذا الخبر وقع اليم على قلبي، هل يمكن ان يكون رعدا قد نسي كل شيء، وخان الامانة العظمى، وفر من صفوف اخوته، بل انتقل من صفوفهم الى صفوف اعدائهم وبهذه السرعة، يا رب اشفق علينا وثبت اقدامنا.

ثم سألتها مستفسرة:

وبعد من تعرفين من صديقاتنا لم تمسهن يد السوء ولم تصل اليهن قارعة الوبال؟

قالت: نسيت أن أقول لك إن صديقتنا لبانة سيعقد قرانها

هذا اليوم، وسـوف نذهب معا الى هناك، فعسى أن تجدي لك من يخرجك من محنتك.

سـررت كثيرا عند سماعي لهذا الخبر فلبانة أعز صديقاتي واحسـنهن فـي ايمانهـا حـالا، وانضرهن في دينهـا جمالا، وأوسـعهن إطلاعا وأكثرهن عملا، وأنشـطهن سـعيا، وهي بعد ذلك لن تقترن الا بمثلها ولا أظنها قد أخطأت الاختيار فرضيـت بمـن لا يلائـم طبعهـا أو يتحد معها فـي فكرتها وعملها.

ولكن هل يدعنـا الجلادون ننعم بمثل هكذا وصال تقر بـه الاعين، فيكون لنا فرحا وسـروراً مثلما للناس؟ إم انهم سيقلبون علينا أفراحنا أحزاناً؟

وان لبانة ليسـت بالفتـاة الخافية تصرفاتهـا ودعوتها الى ديـن ربهـا فهي فـي الجامعة علم على رأسـه نـار، لا زالت تدعـو الـى ربها ودينهـا، ولا تبالي بما يقـال فيها من أقوال الخصوم والحاسدين، وأنها قد ردت كثيراً من خطابها لانهم لا يتوافقـون مـع مبادئها وقيمها، مما سـبب لهـا هذا الرد بعض العناء.

اذن نحـن ننتظر اموراً علها تكـون القاصمة، وعلها تكون طريقنا الى السعادة الأبدية.

جـاء الليـل وصديقتـي تحاول وسـعها عدم اطـلاع احد بوجودي، ولحسـن الحـظ ان بيتها كان كبيـراً بحيث يمكن اخفائـي اذا قدرت على ان تضبط مشـاعرها وتتركني لحالي فـان ترددها على مـكان متروك أو مهمل يدعو الى الشـك والريبة.

جـاءت اليّ بعـد منتصف الليل تسـعى خفيـة فضحكت

وقلـت: مـاذا تصنعين؟ قالـت: خُلتك خلدت الـى النوم، جئتك بطعام هيا تعالي تعشي فانا ايضا جائعة فلم استطع ان آكل شيئاً لعلمي انك جائعة.

قلت: لاباس، المهم اني في مكان آمن.

وبت ليلتي هناك اتربص، ومن سوء الحظ ان رجال الخراب كانوا في تلك الليلة يحاصرون بيتا للمؤمنين، فكُثر الصياح والعربدة ثم تلاه اطلاق نار، لاندري من أين مصدره؟

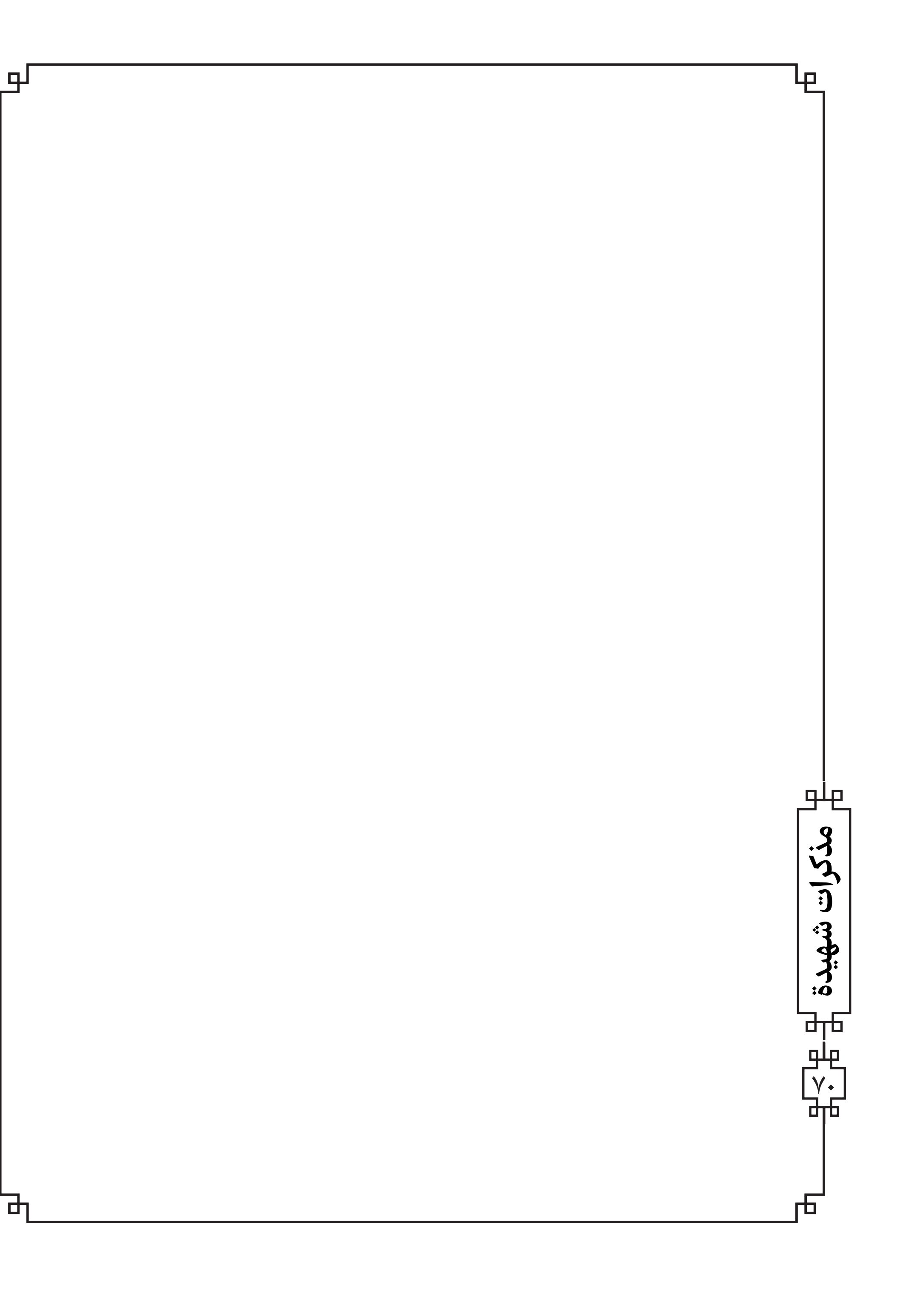
لـم يكن نومي في تلك الليلـة مريحاً، ولا هادئاً، وانما هو نـوم متقطع تخللته كوابيـس الاعتقال، واصبح الصباح وأنا اتطلع الى يوم نسميه سعيدا.

قالت صديقتي: علينا الذهاب الى الحفلة.

قلت: وأنا سأكون المفاجأة التي تفرح بها لبانة.

قالت: حسنا سوف نذهب معا.

وحل المساء، ورحنا نستعد للذهاب الى الحفلة، فارتديت ثوبا من ثياب صديقتي، ثوبا بسـيطا لا يجذب النظر، ولعله يكون موضع انتقاد السـاهيات، واللائي همهن الانتقاد في مثـل هذا اليـوم ولا يتورعن عن الكلام في شـؤون اللبس والملابس. وخرجنا معا نريد البيت الذي سيشهد عقد قران صديقتنا المفضلة.







صانعة الاجيال

هـذه دار عبـد الـرؤوف علـى غير عادتهـا كل يـوم، بابها مشـرعة، يدخـل منها الوافـدون ليشـاركوا اهلهـا فرحهم وابتهاجهم بعقد قران ابنتهم، ولكن من كان الوافدون؟

بالطبع من الرجال من له علاقة بخطيب لبانة وبأهل لبانة وصواحبها.

ان أنت اطللت عليهم سترى حشدين من الرجال والنساء لا يفصل بينهما الا هذه الحيطان، النساء قد تجمعن حول لبانة ينظرن اليها نظر المتفحص، ويسبرن كل انحائها.

بهـذه النظـرات الحـادة فـلا تقـع لهـن عين علـى مثلبة يمكنهـن ان يتحدثـن بهـا، حتى هـذه الملابس البسـيطة كانت بساطتها مع اناقتها لا تثير فيهن الفضول، وقد لبسن التكلف والتعقيد، وحسـبنه احسـن شيء وابدعه، اي شيء مـن الفضول يتحدثن له عنها ذمـا وتوهينا، الا ما كان من بعضهن فقد دفعتهن المكابرة، فهمسـن مرة وقلنها بصوت مسموع مرة أخرى؟ انه ينبغي لهذه الفتاة المتعلمة المليحة

أن تكون في هذا المقام على غير حالها هذه، مالها أمسكت عن الوان الزينة تجمّل بها نفسها، ومالها عزفت عن اللباس البديع؟

اما أنا كنت أنظر الى لبانة فأتخيلها ملاك هبط من علياء السماء على هيئة انسان، لا لانها العروس المزينة؛ بل لقد كانت حاستي السادسة هي من يرى ويتأمل.

قمت وهمست في اذنها وأنا احاول جهدي أن لا يسمعني احد.

ـ يالك من ملاك بهذا اللباس الحسن؟

قالت وهي تبتسم: اتهزئين مني؟

قلت: كيف اهزء من رفيقة دربي وصديقتي بل لنقل حبيبة روحي؟

قالت: أُريد ان أتكلم بكلام قد لا يعجب الحاضرات، أحسبني لا أجد فرصة أُخرى القي فيها بهذا العبء الذي على ظهري، والذي يقول لي انهضي، اصرخي، آن الاوان.

ـ ان هذا اليوم هو يوم فرحك وسرورك، فجنبي نفسك هول مصيبة قد تقع.

ـ وهل تظنيننا سننجوا بعد ذلك اليوم الذي القيت فيه محاضرة على جمع من الاخوات، بمناسبة ولادة فاطمة الزهراء، وها انا احفظها.

ـ حقاً اقصد انني سجلتها ولازلت اذكرها.

ـ لا احسبني اجد فرصة اخرى للحديث.

ـ اذا كنت تعتقدين ان هذا من واجبك والتزامك فافعلي.

في هذه الأثناء، كانت الحاضرات يأكلن مما قُدم لهن من الفاكهة والحلوى وهن فرحات مستبشرات.

وهنا بادرت لبانة الى الحديث، فرفعت الحاضرات رؤوسهن لينظرن من هذه المتكلمة، وعندما رأين لبانة هي من يتكلم لم يخفين تعجبهن من هذه الشجاعة، فلبانة اليوم ليس من شأنها الحديث، ولا هي في حفلة تلقي فيها محاضراتها كما كانت تفعل، بل هي في يوم انسها وسرورها، وليس عليها أن تقوم بمثل هذا العمل الذي قد يعرضها للسخرية أكثر مما يعرضّها للاعتقال.

قالت لبانة: يا حسرتا على ابنة آدم حين خُلقت لتكون للرجل نصفه الذي لا يكتمل الا به، وظله الذي لا يجد الراحة الا فيه، ومعين العزم الذي به يتحرك ويسعى فيكون لها في بناء الحياة نصيبها الكبير، كيف نبذت سنتها التي خلقت لها؟ وتنكرت لجبلّتها التي صبّت عليها، هرعت صوب جهالات مغوية، وحماقات موبقة، فعادت في الحياة سلعة أكثر منها انسان ذا شعور، وصارت آلة اكثر منها كياناً ذا إرادة، فها انتن تنظرن النساء يرحن ويأتين بأرواح مصطنعة، وأجساد مموّهة، برقَعنَها بألوان، وصبغنها كأنما هي قطعة مزخرفة، وكأنّ هذه البشرة التي تعلوهن ليست بشرة تعلوها الحياة، وتسري فيها الروح، فهما يهبانها نضارتها وحسنها. وأصبح الاله الذي يعبد هو الموضة، فهن مسارعات في هذه الحلبة.

السابقة في ساحها هي الفائزة، ومن قعد بها العجز كما يقولون، أو هو الترفع كما هو الحق، فسيقال هذه مهملة، مضيعة، لحق الحياة، وخارجة عن أطوار الناس، وما الفوه فأولى لها أن تعيش في المجاهيل، لا في أوساطهم.

اين المرأة التي أرادها الاسلام في هذه الامة الكريمة، ان

تكون رفيعة النفس، سامية الفكر، همومها كبيرة، وغاياتها عاليـة، لها في البيت ميدان غير هذا الذي تعيش، ولها بين الناس غير هذا الشأن الذي تتردّى في حفرته العميقة.

لقـد أنجبت هـذه الامة العظيمة، العظيم في كل شـيء، الفكر، الفنون، والقادة، والمواقف العظيمة التي لم تأت بها أمة من الامم، ومحكم الصنع الذي لم تبدعه أمة سـواها، ولم تنس ان تعير المرأة بالها وعينها، فانشـأها فكرها خير انشـاء، وراحـت على عينهـا تصنع صنعا بديعـا فلم يمض زمن طويـل حتى عادت المـرأة تناهز الرجل، وقد تسـبقه فـكان منهـن المصلحـات والعالمـات والمتحدثـات، بـل زاحمـن الخلفاء على ارائهم فعارضنهـم وافحمنهم، وقمن فـي وجوههم ينتقدنهم، فعاد من مقـام المرأة بينهم ان لا يستحي احدهم ان يقول (حتى النساء خير مني).

مـا كان أجـدر بابنة هذه الامـة ان تتكـرم بكرامتها، وان تترفـع برفعتهـا، وان تتسـامى بسـموها، فـلا زالـت تعلو وتتسـامى حتى تبلغ الشأو الذي كان لها هبة من ربها وايّما هبـة، وما كان احراها اليوم، والايـام تتصاعد نحو الكمال، ان تكون على شـاكلة اللائي سبقنها ان لم تكن خيرا منهن، لكنها أمسـت وهمها التراب تركـض خلف بريقه، وتعبث به ثـم تغفو بيـن أحضانه، وكل دأبها في حياتها أن تظفر بأكثر شيء منه.

وليتها حين نأت عن الهموم العظيمة ان تتعب من اجلها ـ وجدت الراحة في إخلادها الى الأرض، ولم تقع في حمأة النصـب الشـديد، والمشـقة البالغـة، ألم يكـن كل ما حل بهـذه الامة من الضعف والهوان هو من هذه الحربة القاتلة

التي شـهرها أهل الكيد لها، وسعت بها الصهيونية المقيتة، لتطعنها بها طعنة لا قيام لها بعدها؟

الـم تكـن هـي المـرأة التـي قـال عنهـا الصهاينـة فـي بروتوكولاتهـم، انهـم سـيجعلونها معبر النصر وسـرّ الفوز، والبـاب الـذي يدخلـون منـه الى جنـة لاحلامهـم، فنادوا بإذلالها، وتحطيم كبريائها، وقام لها دعاة هنا وهناك، ينادون بذلـك الاذلال والتحطيـم، فكرّهـوا لها بكل سـبيل ما هي فيـه من كرامتها ورفعتها، وأحاطوهـا بالمغريات وخدعوها بالسفاسـف، ونشـروا أمام عينها البريق والبهارج، فركضت حتى أمكنت لهم، فخلعوا عنها ثوب العفاف، وسلبوها رداء الكرامـة، وعادت لهم سـميعة مطيعة، يقولـون لها افعلي فتفعل بنداء خادع اسـمه الموضة، حتى قامت اسـرائيل، هـذا البلاء الجسـيم الـذي يهم بهذه الامـة، ويقصدها كل يوم باعظم السـوء، ويأتيها بمنكـر البلايا، وهي في كل يوم ينبـع لها نابع يعطي لها بيده وتسـاومه فيذل لها، وتتخوفه وتؤملـه فينحني لها من خوفـه أو طمعه، حتى عاد بعضهم أداة لها، ليضرب غيره من اخوانه وأبناء قومه، وليكون سيفا قاطعا يطعن في دينه وكرامته.

انها مأسـاتنا، بدايتها الاسـرة، فهي ام المجتمع، والاسرة وبدايتهـا وأساسـها الام، فان صلحت فقـد صلح المجتمع كلـه، وان فسـدت، فلا خير فـي بناء بني على اسـاس واه، سرعان ما يخور، فيسقط البنيان في الحضيض.

آه يـا صانعة الأجيـال! اين أنت عن دورك الذي رسـمته لك السماء وشـريعتها؟ كيف صدفت عن سبيلك الميمونة التي سارت بك بالامس الى أشرف غاية، ووضعتك في أرفع

مـكان؟، ماالـذي جنيته اليوم وأنت في منـأى عن كرامتك ومجدك غير المذلة والهوان؟

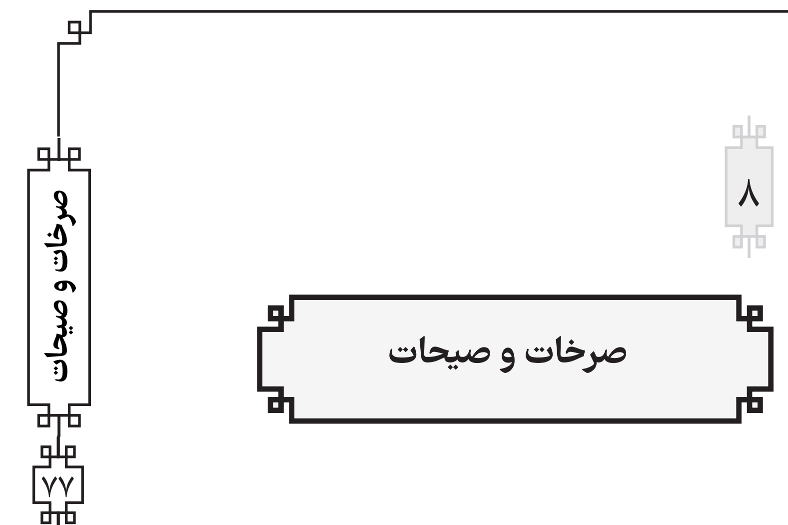
اصنعـي لنا الرجال الأقويـاء، تجري في عروقهم الاصالة، والعمـق، والحكمـة، حيـن تنفخيـن في أبدانهـم من روح الهـدى، وتُفيضين في قلوبهم من معيـن الصلاح، ليعيدوا لهـذه الامـة الكريمة التـي حفّت بهـا الكـروب والخطوب، دورها الرائد الذي كانت فيه، لا تلهينّك الزخارف عن دورك، ولا يخدعنّـك الخادعـون بمكائدهم عن شـأنك، فأنت أُسّ الحيـاة، وأنـت تصنعين القـادة الامناء في كنـف الفضيلة، تَهبين الجنود الاوفياء في رحاب الايمان.

ألم تكوني مع محمد سـيفاً من سيوفه على أعدائه، ويدا تعينـه على بنـاء الامة الكريمة؟ ألم تكونـي ممن يبايعونه علـى البذل والفداء، ويهاجرون عـن أهليهم وديارهم فراراً بدينهم، ويسـخون باعز مـا لديهم من أجلـه؟، كيف عدت حربـة في قلبـه تهطعين الى نـداء عدوه، فينتضيك سـيفاً عليه، وتبذلين له اكرم شيء وهبك إياه، بعد اذ حرمت منه قرونـا متطاولة، وهـو كرامتك، وشـموخك رخيصاً ليصيب من امتك غايته من هدّ ركنها واذلال كلمتها؟

كانـت لبانـة تتكلـم بصوت متهـدج، وعبـرة بادية، حتى غلبها هذه اللحظة بكاؤها فسـكتت عن الـكلام، بينما راح الحاضرات امامها بين ساكتة على حيرة، أو باكية لبكائها، أو باكية للمعنى الذي ابكاها، وانطلق الى سمعها صوت امّها:

ـ رفقا بنا يا لبانة، هذا موضع أنس وسرور كفى يابنيتي.

كفّت لبانة عن الحديث وراحت تكفكف دمعها، واجهدت نفسها كي تعود الى حالها قبل كلامها.



٨

صرخات و صيحات

وانصرف الحاضرات من ذلك المشـهد الميمون، تودعهن لبانة ببسـمتها الصافية، وروحها الطيبة، ووجهها المشـرق، تحمـل كل واحـدة منهن في نفسـها شـيئا جديـدا، فهذه آلمها تقريـع لبانة لهن، وصولتها عليهن، وقد حسـبت أنها نالـت منهن بكلامهـا، وحطت مـن قدرهـن، وتلك راحت تضمر في نفسـها شـيئاً تود لو ذهبت به الوشاة الى أسماع الجناة، وتلك خرّت مؤنبة نفسـها على ما سـلف من امرها، متحسسّة، واقعها الاليم ناقمة على السراب الذي ولّت تعدُ خلفه متوهمة اياه المنهل العذب.

وبقيـت أنا جالسـة، وعيناي قد تسـمّرتا بلبانـة، فمقامها قد شـمخ في نفسـي، ومنزلتها قد علت فـي قلبي، وصرت أحسـبها ملاكاً يفيض طهارة وشـفافية وبهـاءاً، لقد ملكت روحي ومشـاعري واستحوذت عليها اسـتحواذا عجيبا، لقد بـدت لي كالنجم يفيـض رقة وصفاءا، وهذا سـحر حديثها الشـهي، يفوح عنـه طيب الهـدى والصلاح، وهـذه جرأتها الصادقة الوثابة ترفعها عندي الى أعلى موضع.

ومـا أن انصـرف الحاضـرات حتـى قامـت اليهـا حميدة لتسـارها وتناجيها في شأني، وعادتا الى بعد حين، والشوق يطفـح من جنبات لبانة لتجلس الـى جنبي تحدثني جاهدة أن تدخل الانس في نفسـي وان لصوتها وحديثها على قلبي لوقعـا هو وقع الندى على النبتة التي أوشـكت على الذبول من فرط الصدى.

وبقينا معاً بعد أن إنصرفت حميدة الى بيتها لا تكاد إحدانا تكف عن النظر في وجه صاحبتها وتبتسم، ومضت تكلمني كلام الجهـاد والكفاح المقدس لا حديث البهجة التي باتت تشـارف علـى الولوج فيها، وتوشـك ان تغرق في سـبحات انسـها، فنفسها أرفع أن تطلب هذه الاشياء أو تبحث عنها، ولا عن الخطيب الحبيب ولا عن ماله وجماله، ومهنته.

قلت لها مداعبة:

أيـن منـك الجهاد بعد اليوم يـا لبانة، وأنـت مقبلة على حياتـك الجديدة، ومشـاغل الزوجية التـي اتمنى ان تكون سعيدة هانئة؟

فقالت ضاحكة:

ـ واين مشـاغل الزوجيـة من صديقتي المطـاردة، وهي حديثة عهد بالزواج والقرين الجديد؟

ـ اتقولين هذا جادة يا هدى؟

ـ وأنا اضحك ولم؟

قالـت: فهل تريـن علاقتنا بديننا علاقة سـاعة من الزمن أو فتـرة من العمـر، أو علاقة عبادة نؤديها في اليوم خمس مرات أو ذهاب الى بيت الله، أو اعطاء خمس أو زكاة؟، هل عقيدتنـا في حياتنا كأي شـأن من شـؤوننا، نمارس العيش

فيه مدة، ثم نستبدل به غيره كما يحلولنا؟

هززت رأسي وقلت لها:

هـذا اذن ما جعلك في سـاعة السـرور تبكيـن وتظهرين للحاضرات بمنظر لا يسكن اليه بعضهن أو اكثرهن. وهو ما جعلـك تحولين الزغاريد والاناشـيد الى صرخات وصيحات هداية، تهزين بها من الأعماق أرواح المدعوات وضمائرهن وقـد جئن ليتمتعن بما حسـبن انه قد أعـد لهذا اليوم من صنـوف الحلـوى والانـس، وحسـنا فعلـت فلقـد كان زادا ممتعـا، وحلـوى لذيذة لـم يتذوقنها، ولم يأكلـن منها في مثل هذه المناسـبات، وعاد البعض منهن موفور الحظ من اللذة والسحر، وأرجو أن يدوما.

وتوالت علينا سـاعات الليل، وراحت سحابته تسري حتى جـاوزت نصفه، ونحـن بعد سـاهرتان بل أرقتـان نتجاذب أطـراف الحديث حول أمور كثيـرة حتى كان للنوم أن يطرق أجفاننا فغفونا.

واسـتيقظنا بعد حين على صوت طرق شـديد على الباب أرهفنا سـمعنا متوجلتين حذرتين وهمست لبانة في اذني لا اشك في أنهم هم، قلت وأنا ارتجف مذعورة: من تعنين؟

_ رجال الارهاب.

_ كيف النجاة اذن؟

قالت بكلمات ذابلة.

_ هوني عليك سنتسلق بيوت الجيران ونجرب حظنا هذه المرة كمـا جربتيه أنت من قبل فافلحت وظفرت بالسـلام من ايدي المجرمين.

واسـرعنا نحو سـلم البيـت وراحت ارجلنـا تضرب عجلى

مرتبكـة علـى مراقيـه، حتى بلغنـا الباب الموصـد المؤدي الى السـطح، ولكن ويا للهول ما رأينـا، لقد وقف نفران من الجلادين شاهرين السلاح، تحسبا لهروبنا، وسمعنا احدهما يقول:

ارجعـا وافتحـا باب المنزل فلا حيلـة للهرب ولا نجاة من ايدينا.

وأوشـك الـدم أن يتجمد فـي عروقنا، وقالتهـا لبانة كأنها قطع من قلبها المصمى:

_ لقد حاصرونا فلا مناص ولا خلاص.

ورجعنـا ادراجنا، وقلبانا ينبضـان نبضا متلاحقا قويا، وقد خارت قوانا، وذبلت اعضاؤنا، وجف حلقانا، وعلت انفاسـنا، وغامت الاشياء امام اعيننا، فلا نكاد نبصر ما بين ايدينا.

فقلت للبانة لولا ما نهى الله عنه من الانتحار لقتلت نفسي السـاعة متأبية ان اسلمها رهينة ايدي اخبث الناس طباعا، وأخسهم فعالا، وأحطهم قدرا.

هنا بادرتني لبانة قائلة:

هل قالت مقالك سمية قبل أن تمتد اليها أيدي المشركين أو زينب قبل أن تقع في أيدي المردة العتاة؟ سـلمي امرك لله، احتملي كل شيء من اجله.

ويلـج المجرمـون فـي ضـرب البـاب، ويعلـو صياحهـم مزمجرين آمرين ان نفتـح الباب، وظللنا جامدتين لا نحير جواباً، اولا ندري ما نفعـل، وانطلقت لبانة الـى غرفة ابيها لتوقظـه مـن نوم، وعجلان ما اسـتيقظ فزعا قـد أخذ منه الأمر كل مأخذ، وأوشـك أن يسـد عليه سبل الرأي، ومنافذ البصيرة، وجمد قليلا ثم قال:

قاتلكم الله أيها الظلمة، يا سالبي أمن الناس وسكينتهم، ماالـذي جنينـاه حتى تهجمـوا علينا في هـذا الليل الوادع لتكدروا صفونا؟

هنـا كانت ام لبانة قد اسـتيقظت هي الأُخـرى على حال لا توصـف من الفـزع والحيـرة والاضطـراب، وقد ضعفت قدماهـا عن حملها، فهوت قاعدة تدعو الله وتتوسـل اليه، وتطلب نصره وعونه.

وتتكشف سحب الحيرة على هذا الرهط المؤمن المحاصر، هنا تكلم عبد الرؤوف قائلا:

أرى مـن الحكمة والتعقل ان أفتح لهـم الباب واحادثهم بالحسـنى واتعرف علـى مرادهم فانهم لا شـك مقتحمون الدار مغلظون لنا العقوبة.

ويتقـدم بخطى وئيـدة ثقيلـة كأنمـا ينقلها فـي الوحل، وامتـدت يده نحو الباب فكأنها امتدت الى ارواحنا لتخرجها من ابداننا، ولكنه قبل ان يفتحه صاح قائلا من وراء الباب:

ـ نحن افتح الباب بسرعة.

ـ ماذا تريدون في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

ـ نحـن مأمورون من قبـل الدولـة واذا اردت قدمنا لك الدليل علـى ذلك، افتح الباب دون ابطـاء والا فان العاقبة سيئة وقاسية.

ـ حسـنا سـوف أرتدي ملابسـي وأخـرج اليكـم لأذهب معكم.

ـ افتـح الباب فاننا لا نريد الا ان نكلمك كلمات معدودة، ثم نذهـب لنتركك مع كامل الاختيار التـام، تراجعنا حيث تريد لقضية مهمة تخصنا وتخصك.

ـ أرجو ان تكونوا صادقين في كلامكم ومد يده الى الباب فانثالـوا كالوحـوش الضارية وقد اخـذوا علينا كل منفذ في البيت، ثم قال كبيرهم لعبد الرؤوف:
ـ هنـاك قضيــة مســتعجلة تخـص ابنتك لبانــة وضيفها هدى، سنأخذهما معنا لنرجعهما بعد دقائق معدودة.
ـ هل استطيع ان اعرف تلك القضية؟
ـ حتــى نحــن لا نعرف ما هي ومــا جئنــا الا لتنفيذ الامر الصادر.
ـ هل يمكنني ان اذهب معهما؟
ـ لا مانع عندنــا فاننا نرحب بالضيوف الأعزاء مهما كثروا وعندنا لهم ضيافة كريمة.
واقبل عبد الرؤوف بوجهه على ابنته قائلا:
استعدي يا بنيتي للذهاب معهم مع اختك هدى وأرجو أن يكونوا صادقين في كلامهم.
ويضحك أحدهم متهكما:
أتشــك في صدق كلامنــا؟ متى كذبنا علــى الناس أو قلنا لهم غير الحقيقة؟
وانتحبت ام لبانة قائلة: وأنا ايضا اذهب معكم لا طاقة لي على فراق ابنتي لابد أن أذهب معها.
ويقول احدهم:
- ابنتك أمانة عندي فاطمئني.
ـ ومن أنت حتى أثق بك؟
لا تطيلي الكلام اما أنت فتبقين وأما ابنتك وأبيها وضيفها فيمضون معنا، أفهمت؟
وهنــا أمر هــذا اللئيم اثنيــن ممن معه أن يفتشــا البيت

تفتيشا سـريعا فجاسـا خلالـه ومكثا غيـر قليل ثـم عادا يحملان معهما مجموعة من الكتب عرضاها قائلين:

هذه بعض كتب التخريب التي وجدناها.

وراح هو يقلبهـا وقد أبصرت من بينها كتب (بنت الهدى) كلها، الاسـلام يتحدى، رسالتنا وكتاب المدرسة الاسلامية، وكتاب التربية الإسلامية، وما هي الا لحظات حتى كنا ننقل أقدامنا المهزوزة أمام عصبة الشـر، تشيعنا ام لبانة ببكائها ودموعها ودعائها، ثم اركبونا سيارتهم وانطلقوا بنا مسرعين.

وفي السـيارة تحسسـنا علـى رغم الظلمة، جسـدا طريحا عند اقدامنا، ثم سـمعنا انينا خافتا راح يشتد رويدا رويدا، ثم تمتمات خافتة فكلمات شـبه واضحة فهمنا منها بعض آيـات القرآن، وكأن عبد الرؤوف قد ارهف سـمعه للصوت حتى تبينه فقال:

دهشـا، يا الهي انه صوت عمـاد، ماذا جرى له؟ اي منكر اتى حتى يفعل به هذا الفعل؟

عندهـا احسسـنا بصفعة قويـة جاءته على فمـه تعقبها صيحة.

_ اسكت يا حمار! لا تثرثر.

ولم تمض على هذه الحال أكثر من نصف ساعة حتى كنا قـد بلغنا حيث يريـدون، ولم ننزل من السـيارة حتى كانوا قد عصبوا اعيينـا ثم انزلونا واحدا تلو الاخر بالدفع العنيف والسباب والوعيد.

ومـا هي الا خطـوات حتـى ادخلونا غرفة، ثـم اوصدوها وذهبوا، وبعد صمت وسكون يسيرين قلت بصوت خافض:

_ لبانة هنا.

اجابت على الفور: نعم.
ـ كأن والدك ليس معنا.
ـ لقد فصلوه عنا واخذوه الى مكان آخر.
ـ انني لشديدة الخوف والتأثر.
ـ إن لم ينجك الصبر أهلكك الجزع، وقد نزل بنا ما ترين، فـان لم نصبـر قتلنا الحـزن والبرم، وإن صبرنـا ظفرنا بأجر الصابريـن، ومرت بنا المصيبة بوطأة هـي أخف من وطأتها مع التسـخط، ومـادام كل أمرنـا بعين الله فعلام الشـجن والتألم، واحتساء كأس الهموم.

مـاذا تقولين لو كنت مع زينب في كربلاء يوم عاشـوراء، ورأيـت القوم قد أحاطوا بالحمـاة والأهلين من كل صوب، ثم قطعوهم بأسيافهم ارباً، ثم أحرقوا الخيام عليهن، وعلى بقيـة النسـاء الثـاكلات، والصبيـة والصبايا، ثـم قادوهن مهتوكات الحجاب، عبر الحشود الغفيرة، تتصفح وجوههن أعين الآثمين، وتنفذ في محاسنهن سهام النظرات الخائنة، انـه نهج التضحية والتحمـل والعطاء من الرجال والنسـاء لكل منهم دوره فيه وصبره واحتماله في مصاعبه وآلامه.

وشـرف المؤمنة في رضا ربها حتى لـو كان في ذلك هتك سـترها على أيـدي الظالمين، فـان ذلك منتهـى بذلها لله، وغاية تحملها على سبيله وذلك هو ذروة شرفها وعزتها.

ويطلـع نور الفجر ونحن سـاهرتان لم يغمـض لنا جفن، ولم تكتحل لنا عيـن بنوم، ولقد رفعنا العصائب عن أعيننا بأيدينـا وصلينا صلاة الصبح مع التيمم، لاننا يائسـتان من الحصـول علـى الماء قبل طلوع الشـمس، فمـن يفتح لنا السـبيل اليه، والظالمون قد أوصدوا الباب، وولوا يعمهون

فــي غيهم وبغيهم، وأجلنا النظـر في الغرفة الضيقة الخانقة التــي لم تمتد اليهــا يد التنظيف، وقد امتلأت بريح كريهة لا تطــاق، ورحنا نرجع البصر في الغرفة فرأينا عند النافذة عدة قيود أوشكنا ان نرى من خلالها تلك المعاصم الطاهرة التي طوقــت، ورأينا على الجدران كلمــات خطت بالدم مضطربة مشوشة استطعنا ان نقرأ منها هذه الشعارات:

هيهات لن نحيد عن طريقك، يا زينب البطولة والفداء.

_ المجد لك يا سمية، يا أول شهيد على درب الاسلام.

_ الثائرة القرآنية لا تخاف، بل اعداؤها هم الذين يخافون.

هنا تنهدت لبانة قائلة:

هذه احدى الغرف التي خصصت لبنات الايمان، يحجزن فيهــا عنــد التحقيق، امــا بنات الفجــور فانهن في شــواهق القصور، وقــد أكثرن في الارض فســاداً، وأضللن كثيرا من العباد، لا رادع ولا منكر يغيّر ولا ناقم يبدل، النظام كله لهن يحميهــن، ويذب عنهن، ويكافئهن، مــا أروع اولئك اللواتي ســبقننا الى هنا فصبرن واحتســبن وتجلدن وتركن لنا من آيات تجلدهن، واستبســالهن هذه الكلمــات الرائعة تزيدنا صلابــة وصمودا، ومــن يأتي بعدنا الى هنا مــن حرائر الحق عزما وثباتا ثم أشارت الى الارض قائلة:

انظري هذه خصل من شعورهن نتفتها أيدي الغواة، وهذه قطــع من ثيابهن قد مزقتها ســياط الفجار، وهذه دماؤهن كأنها بعد لم تجف، تقول: إنها ســاعات من العناء وتنقضي ثم إلى احدى الحســنيين، أما فخــر الصمود في الدنيا، وإما ثواب الخلود والشهادة.

ثم أرهفت سمعها صوب النافذة وقالت:

هلمي اسمعي هذه صرخاتهن تحت سياط القساة الجفاة يستفلون من دينهن فلا يظفرون بطائل، ويساومونهن بخبيث الاساليب وشرها على عهود الجهاد فلا يفلحون بما يرغبون.

يا اله العالمين ما ينقمون منا الا الايمان بك رباً وحاكماً، وبكتابك القرآن دستوراً وقانوناً.

يا رسول الله اليك شكاتنا من هؤلاء الظلمة الذين يرون في مسيرتنا على نهجك جريمة كبرى يعاقبوننا عليها بأخس الوان العذاب.

ـ يا فاطمة البتول اشهدي لنا عند الله أننا على خطك خط الرفض، ماضيات ولن نحيد.

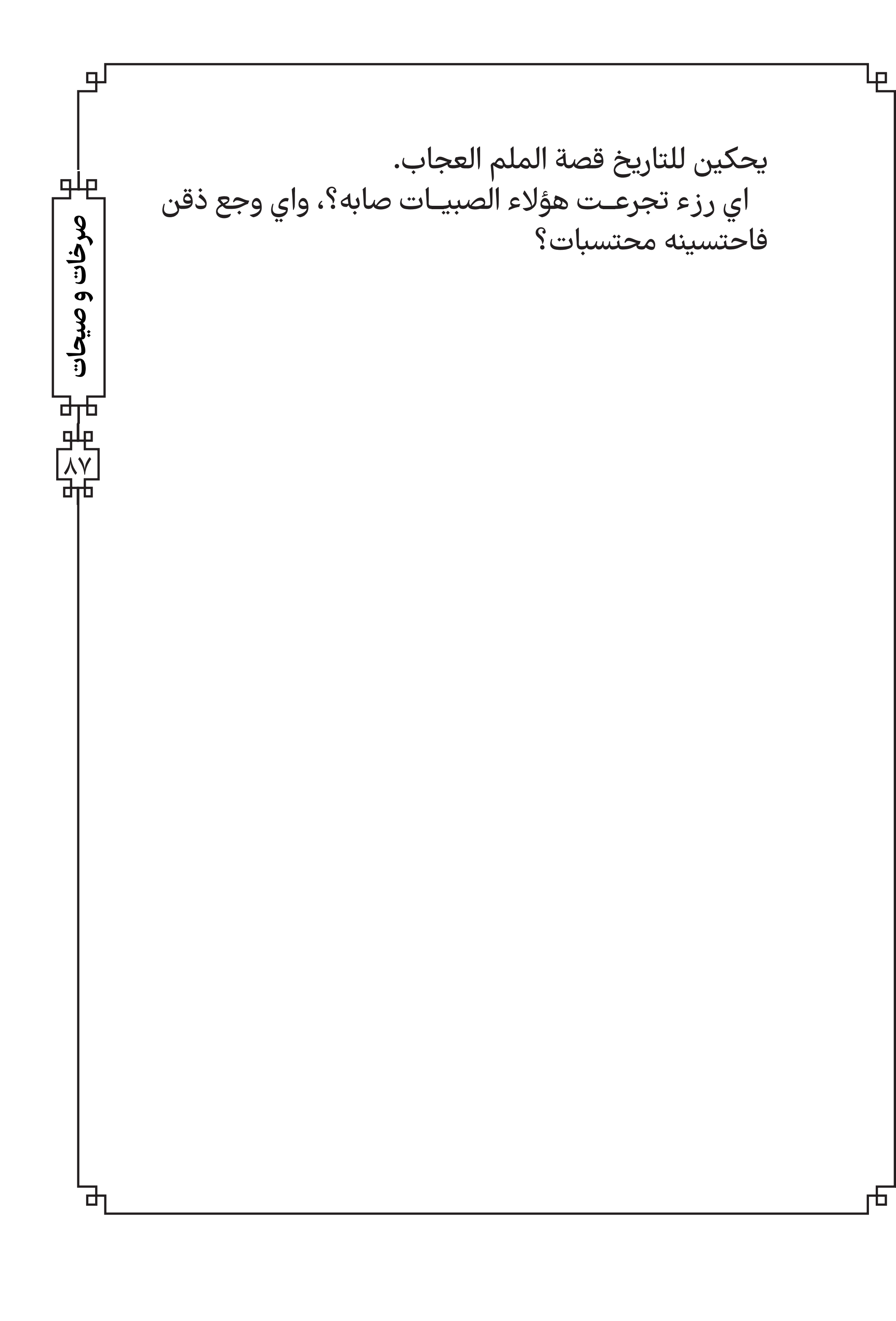
ثم راحت مخيلتي تسرح فيما يجري على اخواتنا في تلك السجون.

هلموا معي في داهية البلاء في أرض المحنة والبلية حيث الطوامير تعج بالأزاهير، وحيث السجون تتلظى فيها نار الشجون، ولهوات الكروب تذيب القلوب، والمعاصم الطهور تطوقها قيود الفجور، من هنّ هؤلاء القابعات في سجون النظام البعثي الفاسد؟

انهن ربات الشرف ورضيعات العفاف بين أيدي المجرمين، يتملونهن كما يشتهون حواسر اولئك الحرائر، غدون نهزة الطامع الحقير.

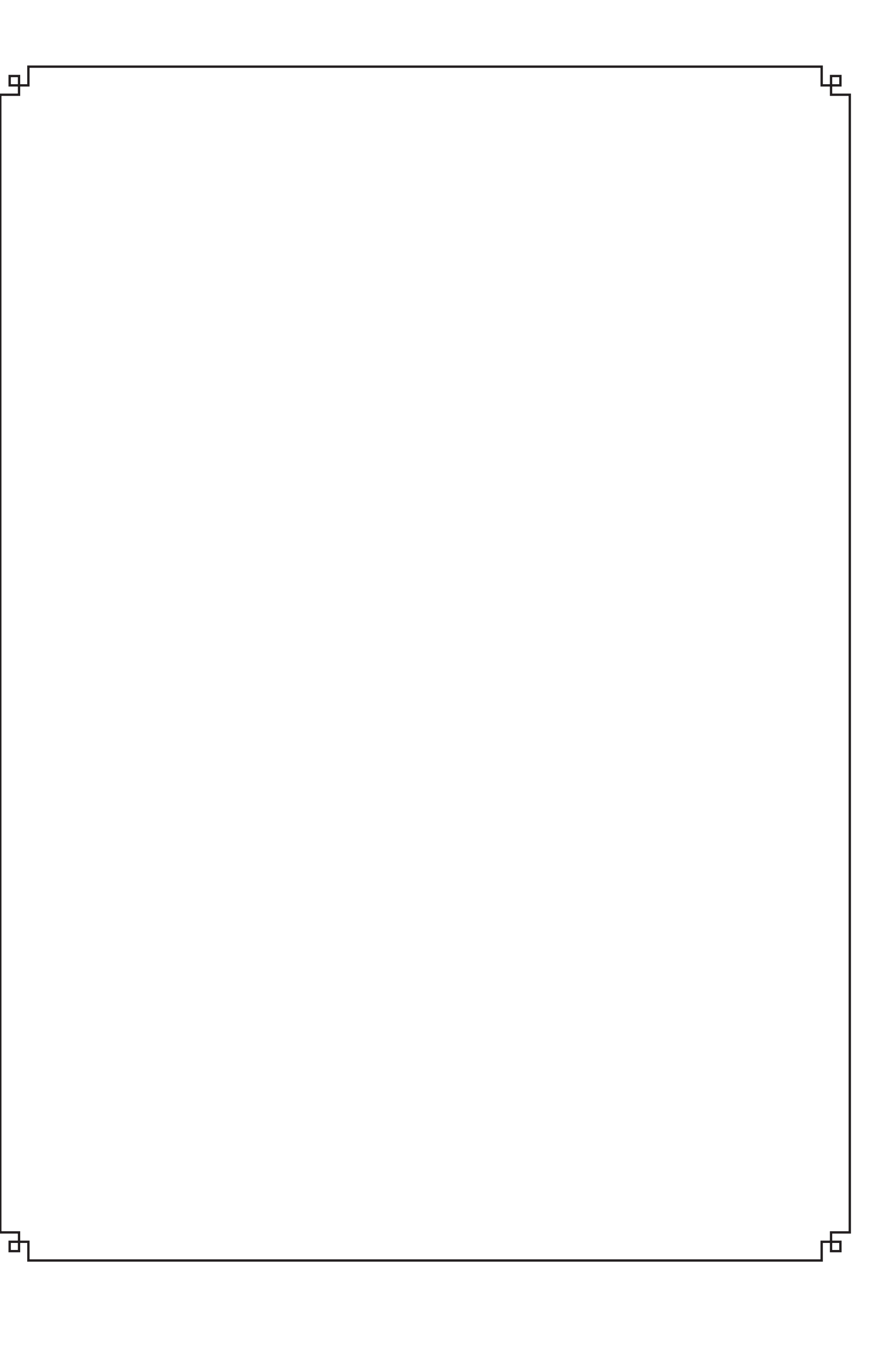
يا لمكر الزمان كيف تضحى بنات العفاف عرضة للعيون العطشى؟ وكيف تصير بنات الهوى في منأى عن الابتذال؟

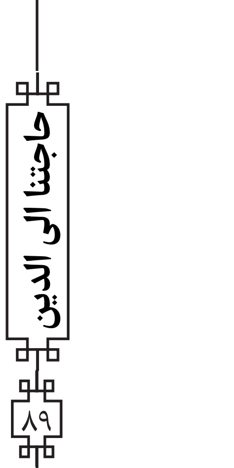
لهف نفسي وليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً، ولم اسمع، ولم أر ما حل ببنات الهدى وهن رهائن الاوصاب



يحكين للتاريخ قصة الملم العجاب.

اي رزء تجرعـت هؤلاء الصبيـات صابه؟، واي وجع ذقن فاحتسينه محتسبات؟







٩

حاجتنا الى الدين

عنـد بزوغ الشـمس علينـا وعلى من في تلـك الطوامير، ونحن مقرونون رجالاً ونساءً في اصفاد الطاغية لكننا احرار مادامـت لدينا الارادة والعزم تكنفتنـا ظلمة الجور البعثي، ولكـن بصائرنا منيرة مشعشـعة بالايمـان، وقلوبنا وهاجة سـاطعة اليقين. ننتظر في كل لحظة أسـوء الامور، ونتلقى أبشـع الضربات، ونسمع أقسى كلمات التجريح التي هي من حق أسوء الخلق، وذنبنا إيماننا بالله العزيز الحميد.

تفتـح الباب فيدخل منها نفران كأنما اغشـيت وجهاهما قطعـا مـن الليل، عليهم غبـرة الضلال، ولبـوس الطغيان، قد شمرا عن سـاعديهما وراحا يمشـيان تغطرسا وكبرياء، ويحدق فينا قليلا ثم يقول احدهما ساخرا.

هيا أُعددت المائدة الستما جائعتين؟

وعرفناها تهكما واستخفافا ودعوة لنا الى العذاب، ويمدان يديهمـا الاثيمتين فينتزعان حجابينا ثم يصفعاننا صفعات

قوية دار لها رأسـي انا، واشتعلت النار في عيني، واضطربت نفسـي وفزعت ولعـل لي الحق في ذلك فانهـا المرة الاولى التي أرى فيها ظلم الجناة وبطشهم.

راح الحقير يدفعني بعنف وصلافة حتى أوصلني الى صالة كبيرة وقعت عند صدرها غرفة كتب عليها (الضابط)، وحين دخلت استرخى الخبيث على كرسيه ضاحكا وهو يقول:

اهلاً وسهلاً بضيفتنا الكريمة تفضلي اجلسي.

وسكت قليلاً ثم قال:

مـن الذي انتـزع منك حجابـك؟ ارجعوا لهـا حجابها إنها مؤمنـة، ولا تصبـر على عدم الحجـاب أمـام الغرباء لحظة واحدة، ولسـوف نرد لها حجابها، ونرجعها الى اهلها بعد أن تجيب جواباً مقنعاً على بعض اسـئلتنا، ولسوف لن تتعرض لمـا تعرضت له سـواها من البـلاء الذي لـم تتوقعه امرأة تحمل عفة الفطرة فضلا عن امرأة مؤمنة متدينة، وسرعان ما جـاء احد جلاوزته بحجابي فلبسـتها علـى عجل عندها قال:

انظـري انني لا اريد لك الا الخير وما تحبين، فلا تخرجيني عـن طوري معـك لتتعرضـي لما لا تحمـد عقبـاه، بل لما تتوقعينه.

ثـم امر جلاوزته المحيطين به الخروج وبعد ان اسـتتموا خروجهم قال:

عندي بعض الاسـئلة أحب أن تجيبي عليها سريعاً، أجوبةً صادقةً ترضيني حتى ترجعي اليوم الى البيت. فلا شـك أن أهلـك قد ضاقوا ذرعـاً بمغيبك بين أيدينـا لما يظنون من الظنون، ولما يتوقعون من التوقعات.

ثم قال: هل أنت لبانة؟

هنا قررت أن اكذب عليه، وأن ادعي أنا هي لبانة، فالامر كما يتضح لي خطر، ولبانة حديثة عهد بعقد قرانها، واظنهم قد جاءوا بها لامر خطير وأنها لابد سوف تعاقب عقاباً أهونه الاعدام.

فقلت: نعم انا هي.

فقال: أنت أيها الغادة الحسناء، زوجك لاشك في انتظارك خصوصاً وان زواجكما قد تم قريباً جداً، اني ليسعدني أن ترجعي اليه هذا اليوم.

فقلت: واين هو؟ الستم قد جئتم به شبيه الاموات الى سجنكم؟، ولم ارد ان اتمادى في الكذب فاقول واين هو زوجي؟ بل اكتفيت بالاختصار والتلميح.

فقال كالمستغرب: من قال لك ذلك؟ هذا افتراء.

_ لقد تحسسناه جسدا طريحا يئن في السيارة التي اركبونا فيها.

_ أنت مشتبهة، لقد كان ذلك الطريح انساناً مخموراً وجده رجالنا طريحا على قارعة الطريق فجاؤا به كي نعاقبه.

وهنا ابتسم اللئيم ومد يده الى الكأس التي أمامه فتمزز منها، ثم نفث ما فيها في وجهي وعاود الكلام.

_ اطمئني يا لبانة أن زوجك في مكانه بانتظارك لتعودي اليه، وهذا مرهون بصدق جوابك على الاسئلة.

_ ما هي اسئلتك؟

سؤالي: ما هو دورك وموقعك في ما تسمونه الجهاد في سبيل الله أو العمل من أجل الإسلام؟

_ دوري هو دور كل فتاة تعين امها في شؤونها وتعد

دروسها، وتعتني بزوجها بعد زواجها.
ويضحك اللعين ساخراً ويقول:
ـ أنت عاقلة وسـؤالي ليس صعباً لا يفهمه مثلك، اجيبي على سؤالي الواضح، ودعينا من اللف والدوران.
ـ لقـد فهمت سـؤالك وليـس عندي مـن واقعي وعملي شيء يكون جواباً عليه فليس عملي الا ما بينته لك.
ـ هذا سـؤال مهم لم تجيبـي عليه، ولن تخرجي من هنا حتى تعطينا جوابه.
سـؤال آخـر: كم هن الفتيات اللواتي افسـدتهن شـأنهن وغيرت أفكارهن وجئت بهن الى تنظيمك؟
ـ قلت لك أن مهمتي هي بعض شـؤون البيت والدراسة، ولا شـأن لي بعد ذلك، ثم نحن شـعب مسلم ولا حاجة لنا بمن يدعونا الى الاسـلام، وان كنت قـد تكلمت عن الدين والاسلام فانا امرأة مسلمة تحمل مبادئها وقيمها ورسالتها وليست عدوة لوطنها، ولا تريد الا الخير لبنات جنسها.
ـ يعني انك تتكلمين في الاسـلام، وتحاولين جر الفتيات اليه.
ـ اقول لك نحن اناس مسـلمون وهويتنا اسلامية ولسنا مشركين، ويبدو لي ان سؤالك هذا غريب جدا.
حسنا ونادى أحد اعوانه وقال:
هات الشريط.
ويدخل الاجير وبيده الشـريط ثم يسـلمه لسيده ويأخذه هـذا الاخير ويضعه في الجهاز ثم يضغط على زر التشـغيل ليسمع صوت لبانة وهي تلقي محاضرتها في احدى جلسات الاقرباء والصديقات بمناسبة ولادة الزهراء.

دقت أبـواق المسـتعمرين، ورفعـت لافتاتهـم يتباكون على حرية المرأة الضائعة، ورفعوا شـعار المساواة والعدالة واضطهاد الدين للعنصر اللطيف.

ثم اندسـوا في صفوفنـا، وراحوا يقولون لنـا ان الدين لا يعـدو ان يكـون دنيا غيبية يتصل بها الانسـان بربه، وعالم شـعور يدخل رحابه يتعلق بأذيال السماء ويسامرها وليس من وراء ذلك نهج للحياة، ولا قانون لمسيرة الانسان بكاملها علـى الارض، وكذلـك قالوا ان الدين سـبب واهي تعلق به الضعفاء والمحرومون والخائفون ليهونوا من سـطوة الألم للضعـف والخوف والحرمـان، فاذا أتى العلم فسـكنت اليه النفـس، واطمـأن به الشـعور، وأمحى به عـن المرء ظلام الخوف والضعف، فليس له الى الدين من حاجة، والدين كما نعلـم، ليس هو هـذا البهتان الذي قيل عنه، بل هو التحرر والانعتـاق من رق الالهـة الزائفة، والشـهوات، فلا يجعلهم بهائـم سـائحة، وقد خلقـوا اناسـا ذوي عقـول، ويحررهم مـن رق المسـتبدين الظالمين، فـلا يركبوا علـى أكتافهم، ويجعلونهـم مطايا الـى غاياتهم واهوائهـم، ويحررهم من الاوهـام التـي غرقوا في لجهـا الهائل، ويفتـح عيونهم على حقيقـة الكـون، ويدعوهـم الى التأمـل فيه، واسـتقصائه بالتدبر والتعقل لا بالسفاهات، وكل هذه امور لا تزال قابعة في الحيـاة: الأوهـام، الظالمون، الشـهوات، فجعل الناس اليـوم يركعون لارباب شـتى، واكثرهم يتيهـون في مفاوز، فيذلون ويشـقون وأغلبهم عبيد للظالمين لا يملكون حولا للقيام عليهم، وتحرير انفسـهم من ربقهم لشهوةٍ مكينةٍ في نفوسـهم، هي حب الحياة والسـلامة، وهي شـهوة حمقاء

تفـح بالبـلاء، فمـا أحـوج النـاس الى الديـن يعيـد اليهم الطمأنينـة والدعة، اللذين فقداهما بعد النأي عنه والاخلاد الـى الارض، فيذهـب بهم القلق والكآبة حين يشـدهم الى ربهم، يجدون في ظله الراحة والبهجة والسـعادة، ويجنّبهم حمأة الصراع عندهم بين أرواحهم وأبدانهم.

ما أحوج الناس اليوم الى الدين يجنبهم وبال الرأسـمالية المقيتة، فلا ربا ولا سـبل غير مشـروعة لكسب المال حتى ولو كانت السلب والنهب والاحتكار والغش والخداع!

مـا احوج النـاس الـى الدين يـدرء عنهم دياجـي النُظم المستوردة التي تدعي المطالبة بحقوق البشر!

مـا احوج الناس الـى الدين يخلّصهم من محن التعصب والوحشـية وظلم الاستعمار، وكلها متفشـية قائمة. العلم بيـن يديها يسـددها ويدلها ويعطيها سـبب القوة والمنعة والسلطان!

مـا أحوجنا اليـه ينقذنـا من بلاء هـذه الحـرب الطاحنة للمطامـع والأهـواء، فيعيـد اليهم السـلام الـذي فقدوه، وعاشوا من بعده في الجحيم!

وليسـت الحياة هي المادة حتى يقال لم يعد للدين شأن فيها، فالعلم يكفي وحده، يكفي ليسـير الانسـان فيها، فله مـن علمه بالمادة مقـام معلوم، لكن الحيـاة هي الاخلاق والفضيلـة، وهي بدونهما شـيء تافه لا يسـتحق ان يعاش فيـه، وكم انـاس بلغوا الدَرَك الأسـفل في ضيـاع الاخلاق والفضيلـة، ولـم يعـودوا يشـعرون ان للحيـاة معنـى غير التفاهـة، فانتحروا لبيـان ردة الفعل القويـة لما جنوه على انفسـهم من الاسـفاف بها في الهبوط، وكم من أمة انهارت

لاول بـأس يدهمها، فأنى لها ان تقوم في وجهه ببأس وهي سكرى من خمرة اللذات والرغبات.

والديـن لم يكن دنيا غيب يتصل فيها الفرد بربه، بل كان نظاما شاملا كاملا يمشي بالمرء في أيسر اموره وادقها على سـبيل قويمة، ونهج سـديد يجمـع له بين راحة الجسـد، وراحـة النفـس والضمير، فكيـف لنا ان نسـتغني عنه، وان نقول انه قد ذهبت أيامه، وانقضت دولته، والناس في هذا اليـوم على ماعندهـم من هذا العلم الذي قد خُدعوا به قد تخلـوا عن العقيدة، ونبـذوا المناهج التي يسـيرون عليها، واكتفـوا بالعلـم قائلين انـه يكفينا درباً نسـير عليه وهاديا يدلنا على الخير.

وهم اليوم في هذه الحرب العوان في عقائدهم العقيمة، كل يريـد ان يزينها في عيون الناس، ويـدرء عنها المثالب والمعايب، ويرمـي غيره بالنقص والعجز والاختلال، ويزيّن هـذه النظم الوضعية المنمقة التي راحت تصب على العالم من شرورها باسم العدالة والمساواة.

والعلـم هـذا الهـم الجسـيم الـذي بـات يسـتعظمه الجاهلون، ويصفق له المخدوعون، ماالذي يحله للانسـان من مشـاكله؟ ومالـذي ينجيه من مصائبـه ومحنه؟ وهل يأتيـه براحة النفـس والضمير؟ هل يدفـع عنه بلاء الطمع والاهواء؟ هل يصد عنه رزية هذه النظم الغاشمة وهو قد قام في أحضانها عبـدا ذليلا يخترع لها ويعطيها صاغرا من أسـباب القوة للظلم ومن وسائل القتل والتدمير؟، ماالذي يمنحه العلم من الوسيلة ليعيش مع أخيه بالحب والسلام وادعـاً مطمئناً قريـراً، وهو لا يعرف الا المشـرط والمجهر،

وما يشـرحه وما يدقـق في تركيبه من شـؤون المادة؟ بل مـا الذي جـزم به العلم مـن حقيقة امور الكـون وظواهره الا الشـيء اليسـير وبقـي الكثير منها يتردد فيهـا بين نفيها واثباتها، وظلت امور كثيرة لا يعرف سـرها ولا يدرك كنهها؟ مـا الذي بهرنـا من العلم غيـر اختراعه للصـاروخ وتفجيره للذرّة وصعوده للكواكب الى غير ذلك؟

نعم اخترع لنا الدمار والموت، فليس يمضي يوم الا ولهم في كل أرض صريع وقتيل، وليس تمر ساعة الا ولهم مجازر رهيبـة، وما يجري الآن في بلدنا علـى أيدى مأجورة، باعت الدين والضمير هو شاهد على ما أقول.

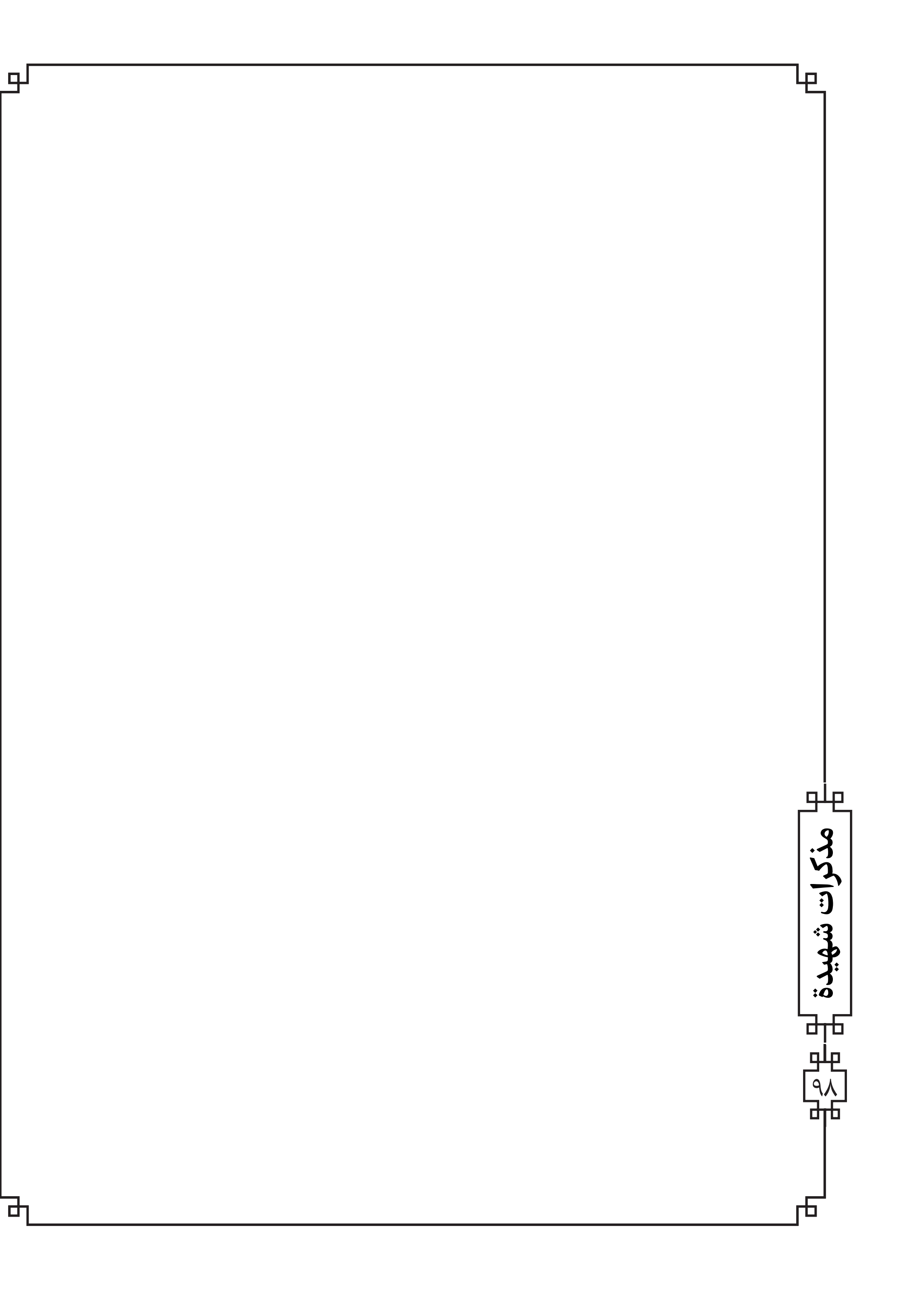
ان العلـم بهـذه الطريقـة قـد امسـى عبـدا ذليـلا لهؤلاء المسـتعمرين، يتكالبون عليه ويتعالون بفنونه، ويخدعون الناس، ويستجلبون قلوبهم بسحره.

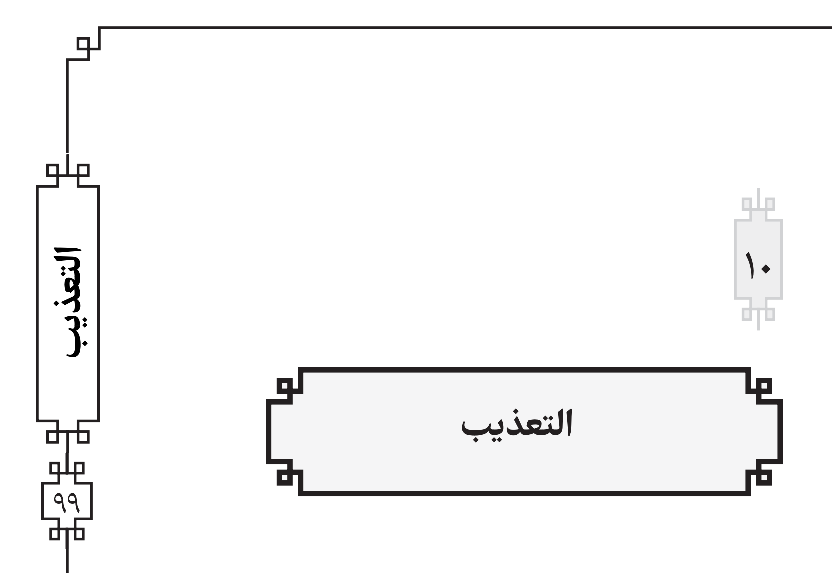
ولا اريد ان اقول انه ليس شيئا حسنا أن يعرف المرء كل شيء عما يحيط به من امور الكون، اننا براء من هذا، ولكننا لا نرضى ان يكون العلم ربا يعبد من دون الله.

ان هـذا العلـم قـد أعمـى الانسـان عـن كل شـيئ غير المـادة، وصهـره في جحيـم الحواس، واغمـض عينيه عن كل شـيء، فكان مع هـذا عاجزا ان يلبـي للناس حاجاتهم في النفس والجسـد، وان يرضي مشـاعرهم وأبدانهم، وان يصعـد بأرواحهم الى مسـتقر الرضى، وبأبدانهـم الى مكان الارتياح، ثم ان الانسـان والنظـام الاجتماعي في اي مكان منـه، يمد العلم يده فيـه؟، وامور النظام لا تخضع للتجربة ولا تقـاس بالمقاييـس فـي المختبرات كالعدالـة والحرية، وحقوق الانسـان، كيف يحددهـا العلم؟، وكيف يحكم فيها

الصواب؟، فالرأسمالي مثلا يقول له الدين: ان في احتكارك ورباك هداً لسنة الحياة أو خرقا لناموسها.

لا بـل يقـول له من فهمـه القاصر في هذه الشـؤون، انه حسـن ينفعك، ويدفع عنك، ويـدر عليك، ولكن النظام هو الذي يقول ان العدالة والانسانية غير الربا والاحتكار، وذلك الفـرد كان في قفار الفجور، واكتوى بنـار الرذيلة، قد يقول له العلم ان شـأنك هـذا لا ضير عليك منـه لانه يجلب لك المتعـة واللذة، ولكن النظـام الاجتماعي يقول له: (ان هذا سقوط لك ولمجتمعك).





١٠

التعذيب

كان المحقق يسمع فيتحرك كمن يأزه صليل المرجل وما ان تم الكلام حتى صاح مغضباً:

حقيرة، معادية، تود ان تصبح وزيرة لدولتها الصدرية.

ثم يشتد ويقول حانقا: صوت من هذا؟

_ صوت لا أعرفه.

_ تنكرين اذن.

_ نعم انكر ذلك فهذا ليس صوتي.

فقال وهو يتذمر ويصيح بمعاونيه:

_ يـا رعد اين الشـريط الـذي يحمل محاضـرة المعادية، لبانة.

فيأتي الآخر مسرعاً وهو يقول: هو ذا يا سيدى.

_ ليس هو انه صوت آخر أبحث عنه.

_ انه هو لم اخطأ. ثم يقول ساخراً:

_ هذا ليس صوت الآنسة، بل صوت أحدى المجرمات.

ـ إذهـب وفتش عنـه، وآتني به فـوراً ولا تذهب الوقت سدى.

ثم التفت اليّ وقال:

اظن انك فهمت حُسـن نيتي، حيـن ارجعت لك حجابك، فأنا لا أريد لك الا الخير، اجيبي الان على اسألتي.

ـ كـم مرة حضـرت دروس بنت الهدى؟، وكم مرة ذهبت اليها في النجف؟

ـ لم احضر لها ولا درساً واحداً ولم أرها مطلقاً، نعم قرآت بعض كتبها.

ـ بل قولي كلها.

ـ نعم قرأت كتبها وتأثرت بها، فليس في ذلك ضير، فانها قصص مسـلية وهادفة تهـدف الى بناء الفرد والاسـرة الى غير ذلك، وهي ليست كقصص فلان وفلان، مزابل أخلاقية تشـيع الرذيلة والفاحشـة، وكأن الدنيا لا شيء فيها الا تلك التفاهات.

ـ اذن لماذا لم تزوريها وتتعرفي عن كثب اليها.

ـ كان يمنعنـي من ذلك مشـاغل كثيرة، وليس من يتأثر قراؤه بكتبه يزورونه ليتعرفوا عليه.

ـ ويضـرب بيـده علـى المنضـدة أمامه ويقـول بعصبية ظاهرة:

ـ أنت تجيدين المراوغة، ولا تفهمين غير أسلوب الشدة، ولكن اذا اجبتي على سؤالي الآتي كان ذلك شافعاً لك عندي.

اذكري عشـرة اسـماء من صديقاتك اللواتـي تربطك بهن علاقة حميمة.

سكتُ حيناً وبدا الاضطراب عليّ ثم قلت:

عنــدي خصلــة اتميز بها عن كثير من ســواي من الفتيات وهــي خصلة الانطواء والعزلة. ولذلك ليس في مقدوري أن اتخذ الصديقات أو أن اقوم بالزيارات لمثيلاتي.

ـ حسنا وما علاقة هدى بك، اليست من صديقاتك؟

انها ضيفة لدي لا أكثر، لأننا نشأنا في محلة واحدة وكانت تربطنا علائق الود منذ الصغر، لا أكثر من هذا.

وهنا صرخ الضابط محتداً:

ـ أنت بهيمة لا تفهمين غير منطق العصا، وصاح بجلاوزته قائلا:

دونكم هذه الفتاة المعاندة التي لا تريد أن تعترف.

وانقضــوا علــي كالذئاب العاويــة، أحدهم مــد يده فخلع قناعــي، والآخر جرني مــن تلابيبي بعنف، وراحــو يعنفونني ويضربونــي حتــى أخرجوني، ثــم أدخلوني الــى غرفة مليئة بأداوت التعذيب، لأختار منها ما اريد لتعذيبي.

ـ هيا انتخبي ما يحلو لك من هذه الأجهزة.

الامــر محيّر جــداً، لا تعجبــوا هذا ما حدث لــي فعلا، انه شــيء لا يمكــن تصديقه، الغرفــة مليئة باجهــزة التعذيب الكهربائيــة المتنوعة، وكلها في خدمة الشــعب، هم لديهم مطلــق الصلاحيــة في أن يفعلــوا ما يشــاؤون. انهم كجنود جهنــم لا يعصون مايأمرهم بــه الطاغية، فلهم حق في قلع اظفــاره، قطع يده، انتزاع قلبه، وكبده، وعند ذلك يضربون عليه حصارا من الآلم الذي لا يعرف مداه الا الله، فكم بهذه الاجهزة احرقت جلود وسفكت دماء وهدمت بيوت؟

ومــاذا لــو امتنعت عــن الاختيــار، هل يتركونني؟ انهم سيعرفون كيف يعاملون امثالي، وكم انتزعوا من المعلومات

بهذه الاجهزة المستوردة خصيصا لاهـل لا اله الا الله، في بلد يدعي انه من اهل هذه الكلمة.

لابأس، سأختار منها واحدة لعل فيها نجاتي بصعقة واحدة من صعقاتها، واسـأل الله ان يسـاعدني على تحملها ان انا بقيـت حيـة، وان لا افتـح فمي وابوح بما عنـدي، أو اعطي الدنية من نفسي.

ثـم قال: هيا يا مدللتـي الا ترين اني ارفق بك ولا احملك مالا تطيقين؟ هيا انتخبي من هذه الاجهزة جهازاً لتعذيبك ولاسـتلال المعلومات منك؟، اظن ان لسـانك لا ينطلق الا بالصعقات الكهربائية، سنصعقك كما صعق موسى واصحابه فتابوا. (قالها بسخرية).

لم يعجبني هذا الاستهزاء، فقلت: اتق الله في انبيائه ولا مجال للتشـبيه هنا. يالك من مرشـدة واعية تخافين الله، الا تريـن انك تخرجين على سـلطانه في وليـه القائد صدام حسـين؟ سـكت وقلت في نفسـي جاء دورك يا هدى هيا تحملي واصبري.

اشرت الى جهاز صغير وقلت: هذا .

قال: كم أنت صديقة ممتازة لا تريدين إتعابنا، فهذا الجهاز هـو مفتاح الافواه التي لا تتكلم، هيـا يا مدللتي تعالي هنا وانهال علي بالصفع اولاً.

لا أدري بماذا شـعرت عندها، انها صفعات ادارت الارض بـي، واحسسـت أنني أترنح من شـدة الألـم. وكان منه ما اغاضنـي وآلمني وتمنيت الموت فيه. لقد تجرأ هذا الحقير وتجـرد من كل معنى للإنسـانية، فمزق ثوبـي وهذا الفعل من اشـد الامور ايلاما على نفسـي من كل ما حدث لي من

تعذيب. فكيـف بامرأة محافظة ترى نفسـها بين يدي لئيم جاف يسـومها سـوء العذاب باعتـى انواعه، لقـد تمثل لي حينها وحشا في ثوب انسان.

صـاح باعلى صوتـه: لا مجال للنقـاش ولا للصراخ فانت الان يا. . بين يدي جبار عنيد.

استغثت بالله وأنا ارى نفسي بهذه الطريقة وقد رحت شبه عاريـة وهذا اللعين يتملاني بعينيه الحقيرتين، لم يمهلني، أخـذ الجهاز الكهربائي فعلقه في حلمة الثدي، وما ان اتصل بي هذا الجهاز حتى اغمي عليّ، فلم أعرف بعد ذلك ما جرى عليّ في ذلك المكان، وحين أفقت وجدت نفسي ملقاة بين صواحبي من المعتقلات من أصناف شتى.

كانوا لشدة جرائمهم لا يعرفون كيف يديرون الامور، فهم كالذي يتخبطه الشـيطان من المـس، يترنحون، يتمايلون، يزعقون، يصيحون كحيوانات مفترسـة، يمشون فنحسبهم يمشـون على اكبادنـا وعيوننـا، واقل ما يمكننـي قوله ان قلوبهـم مليئـة بالاضغان، قد لبسـوا لبـاس الادميين، الا انهـم يفعلون افعال الشـياطين، يتحينون الفرص علينا كي يذيقونـا حر الوبـال، يبثون حبائل المكر، وينصبون شـراك الباطل.

كنت احسـب هـذا الصياح، هـو صياح ضمير الانسـانية المعذبـة الممسـوخة، والا فلـم كل هـذا الحقـد والبغض لاناس لم يروا منهم ضررا، لم يعذبون اخواتهم في الوطن؟ وبـارادة من يفعل ذلك؟ كيـف يعذب رجل امرأة ضعيفة لا حول لها ولاقوة ولم تثبت عليها اي جنحة؟

فـي الواقع انها ارادة شـخص ذبـح الرجال والنسـاء على

السـواء. والان انا في هذه المتاهة، بين الكثير من النسـاء والاطفال، فيهن الشـابة، اليافعة، المسـنة التي لا تعي من امرها شيئا.
هناك وجدت لبانة، لم اعرفها في بادئ الامر فقد تشوهت معالـم صورتهـا الجميلة، لقـد كانت ملقاة مثلـي تئن من جراحهـا، الآمها، وهمومها، نظرت اليهـا والى ما حصل لها، لقد بدت اخرى فقد تورم وجهها بالكامل، وقد غطت اثوابها الدماء، الهي كيف حصل هذا؟ انها تبدو كشبح من الاشباح المتهافتة.
وهـي بدورهـا لم تتعرف الـيّ فانا ايضا شـريكتها في هذا السـباق، فقـد غدوت مثلها الا اننـي لا ارى وجهي كما تراني هي. هي تَعجب لحالي وأنا اعجب لحالها، وكلتانا قد اصبحتا طريحتي هذا المأزق.
وكلمتهـا بعينـي فرأيـت في وجههـا عتاب، وفـي عينيها استفسـار وألم، أنها تسـاءلني عن السبب الذي ادعيت فيه بانـي أنا هي لبانة. وهـذا ما سـيوقعني ويوقعها في غضب المسؤول ان عرف كذبتنا.
يـا الهي كيف لي ان اشـرح لها الموقـف؟، ليتها تقرأ بنات أفكاري!، ليتها تعلم غيب نفسي!، انها تلومني على ذلك ولا تدري ماهو السبب الذي جعلني ادعي انني انا لبانة.
وعرفت بعد ذلك ان لبانة حين اتوا بها الى الضابط متوهما انها هدى لم تنكر بل قالت:
نعـم انها هـدى فاعلمها انـه يعلم اين كانـت، والى اين ذهبـت كذبـاً، والواقع انـه ليس لديه اي اطـلاع بذلك، بل ادعى ذلك ليثبت لها انهم يعلمون كل شيء، وان صديقتها

لبانة قد اعترفت لهم بكل شيء، وانهم قد اسمعوها صوتها وهي تلقي احدى محاضراتها الاسـلامية، وبهذا عرفت لبانة انهم لا يعرفون شيئا، وليس لديهم صور لهن، ولذلك انطلت عليـه كذبة هـدى بادعائهـا انها لبانـة، ولكثرة مـا يقومون باعمال مشينة قد يغفلون عن كثير من الامور، ظلت قضية التسجيل الصوتي معلقة، وكأنه اغفلها أو تغافل عنها.

هـذا ما يقلـق لبانة ويقلقني، هل سـنظل فـي منأى عن الرقيب الذي لا تنام عيناه، ولا تغفل اذناه؟، الله هو العاصم.

وكان مما جرى على لبانة انها عذبت أشد التعذيب لتعترف على صواحبها، وتعتـرف على صاحبتها لبانة كما توهموا الا انها لم تبح لهم بشـيء، وكل ما فعلته هو اعطاؤهم أسماء لبعـض البعثيـات، وبعض العناويـن ولـو زورا، وهي تعلم أن هـؤلاء الفتيات لن يصيبهن اذى، ولـن يعتقلن، وبذلك أرجعوهـا الى المكان الذي كانت فيه لتلتحق بمن سـبقنها الى الزنزانة.

قالت لي وهي تضحك:

لقد كنت اذكر له اسم احدى عميلاتهم وهي تدعى (مُنى علوان)، فقال لصاحبه: اكتب (منى عطوان)، وهكذا الاخير كتـب ذلك الاسـم بهذه الطريقة، وكرر الاسـم على صاحبه خطأً.

قلت لها: اخشى ان ينفضح أمرنا ويعرفون انا كذبنا عليهم عند ذلك سوف نصلى بنيران تعذيبهم.

قالـت: ومـا الـذي سـيحصل؟ هـل الا المـوت؟، كلنـا معرضون له، وهل جاء هؤلاء بصكوك البقاء وعدم الموت، سـيموتون وسـيلاقون جزاءهم العادل، كما نـال من كان

قبلهم من الطغاة جزائه.

ـ ارجو ان يسلمنا الله من شرهم.

١١

صبراً آل ياسر

كان في الزنزانة التي نحن فيها مجموعة من النساء فيهن حتى البغيات، وكنا نعيش الالم باشده ونحن نرى انفسنا بين هؤلاء الفاجرات ومن المتيقن لدينا ان هؤلاء الفاجرات عميلاتهم في السجن قد بثوهن لمراقبتنا والتجسس علينا.

ان تلك الايام والليالي كانت اياما فريدة قُدت من كبد المعاناة التي لا نظير لها ولا مثيل، حرائر مؤمنات يقبعن في سجون مظلمة بين اوباش مسخوا قردة وخنازير، فهن بين أيديهم وطوع بنانهم ان شاءوا رحموا، وان شاءوا عذبوا، يمشون على الارض مرحا وخيلاءا، ويحسبون انهم يخرقونها بوقع اقدامهم الخبيثة، ولكن هل هذا الذي اراه واشاهده هو يحكي واقع حالهم؟ ام أن هناك بركانا رهيبا يثور في كل لحظة في اعماقهم، فيكبته خوف السلطة وفوات المنصب؟، فهم لم يأتوا من شقة بعيدة، ولم يخلقوا من حجر اصم، انهم بشر وللبشر طباعه وعواطفه، الا ان تموت تلك الطبائع، وتدفن تلك المشاعر.

والقصص هناك والذكريات لا تعد ولا تحصى، وليس في مقدرة حافظتي التي تعرضت لذلك الاذى ان تسعفني الان وتأتي لي بتلك القصص والصور المفزعة، صور لاحياء يتنفسون الا انهم كالاموات، فالوجوه قد كلحت، والشفاه قد ذبلت، والبطون قد ضمُرت، والاجساد قد هزلت، الا ان فيها شيئ واحد ينبض ويتعالى نبضه بالحياة انه العقيدة الراسخة التي حوصرت وحوربت، من قبل بغاة وجناة. وليس باستطاعة ظالم ان يستأصل هذه العقيدة التي عقدت في شغاف القلب المؤمن الذي عرف ربه، وصدّق ما وعده، واستبشر ببيعه الذي بايع به، وعلم ان لاخوف عليه من بعد هذا المحك ولا صخب ولا نصب ولا حزن، فراحت جنان الخلد تتراءى لعينيه كمطلع الصبح، أو كشروق الشمس، فما هي الا ساعات من العسر تتبعها ترادف النعم، وفيوض الالطاف.

القلوب تشع في صدورالسجينات الرساليات بنور وضاء، نحسه بهيا مشرقا كرأد الضحى، أو باسما كطلوع الفجر، أو نديا كانفاس الربيع وتعود بنا الذكريات الحلوة الجميلة الى مطلع الحضارة الاسلامية ومدافعيها وباذلي انفسهم من اجلها، فهم والجنة كمن رآها فهم فيها منعمون. ويسمعون نداءا حالماً رقيقاً مواسياً يأتي من الزمان القديم: (صبرا آل ياسر ان موعدكم الجنة).

من تلك الصور التي رسخت جذورها في قلبي، مشهد احدى الاخوات الرساليات اللاتي فقدت عقلها من شدة التعذيب، فقد جاءوا بها الى المشفى وهي حديثة عهد بولادة، ولا زال صغيرها في المشفى، وكانت قد تعرضت

فى السجن الى اشد العذاب مما جعلها تفقد صوابها فكانت تمشــى عارية، وتمثل مشهد أم ترضع طفلها وتناغيه، وكنا نبكى لالم هذه الام اكثر مما نبكى لانفسنا، اذ ان هذه الام الرســالية قد جُنت بسبب ما لحقها من التعذيب، ولكن ما سبب مجيئها الى هذا المكان ولمَ عُذّبَت هذه الام الحامل؟ وما هو الســبب الذي جلبت من اجله؟ الحق اقول لكم: لا لشيئ ابدا، انها زجت في السجن لان زوجها المتّهم بنظرهم كان خارج المنزل حين جاءوا للقبض عليه فأخذوها رهينة مكانه، وحين علم باعتقال زوجته جاء وسلم نفسه ليخرج امرأته، الا ان المصاب قد حدث ولا حيلة للحؤول دونه، فقد مات الصغير في المشــفى، وجُنّت الام. وكان من أمر الزوج أن استشــهد تحت التعذيب، فاضطر الجناة الى تغييبها في السجن، الى ان يجدوا الفرصة المواتية للتخلص منها.

وهنــاك نســوة جيء بهــن مــع اطفالهــن لان اقاربهن قد اعُترف عليهم من شدة التعذيب من قبل اصدقائهم ففروا، فلحق المجرمون بالعوائل فاتوا بهن كأســيرات، فوضعوهن في بناية مدرســة مع الأطفال، ثم جاءوا بهن الى الســجن، وكان صــراخ الأطفال الجائعين يعلو كل حين يفت الاكباد، كيف لي ان احتمل صراخ طفل يطلب الطعام ولا اقدر على تأمينه له؟ وأنا اعلم ان لاهجوع مع الجوع.

فاين هي منظمات ما تسمي نفسها حقوق البشر من هذه المهزلة الفظيعة التي تحدث في هذه الطوامير؟، هل مات الضميــر العالمي؟ هل يرون أو يســمعون هــذه الصرخات وراء هــذه الجــدران؟، ام انهــم هــم مــن طالــب باعتقالنا وترويعنا حفاظا على ســلطانهم؟، ام نحن لســنا من البشــر

الممتاز الذي يحق له العيش الكريم؟
كنت اطلب منهن اسكاتهم، فتجيبني والدة الطفل:
انـه جائع. فالجوع قد فتّ كبـده، لقد كنا في مكان آخر، لقد حبسـونا في مدرسـة وفي احد الصفوف، واغلقوا الباب علينـا، ولم يدعوا احدا يخـرج حتى لقضاء حاجته، وعندما طلب الصغير الذهاب الى قضاء الحاجة لم اجد شيئا اجعله وعاء لبوله فجعلته يبول في الاناء الذي معي، والاسوء من هـذا انني سـقيته ذلك البول عندما اسـتغاث من العطش، فهل تصدقين؟!!

وكنـا نقول للحـرس الذي وكّل بنا ان الغـرف كثيرة فدعنا نتفـرق في تلـك الغرف، فان هـذه الغرفة لا تسـعنا ومعنا صغـار رضّـع، فقال وهو يتألـم: ليس الامر بيـدي ولو كان بيدي لاطلقت سراحكم.

وقضيـة اخرى تغـوص ذكراها فـي أعماقـي، قضية تلك الفتـاة التي جاءت فـي ليلة زفافها مع زوجها الى السـجن، وتبيـن فيمـا بعـد انها حامـل وقد حكـم عليهـا بالاعدام، وكانـوا ينتظـرون وضعها ليعدموها، ويا لروعـة الايمان، يا لروعـة الفداء من اجـل العقيدة، انها كجبل اشـم، تترقب الموت بكل سـرور بل تشـتاق اليه، وتود لو حانت اللحظة التي ستلتقي بها بمن تحب، وكأنها تعاين ذلك حق اليقين. كانت تقول اليس هذا الذي يحصل لنا امنية كل مؤمن يريد الخلود في الدارين؟ اليس هذا ما تسـمو اليه الهمم، وترنو اليـه الابصار، وتمتد نحـوه الاعناق، وتطمـح اليه النفوس العالية، اليس هذا من مواطن البشرى والشكر؟ هل هناك عزة تضارع هذه العزة وجلالة تساوي هذه الجلالة؟

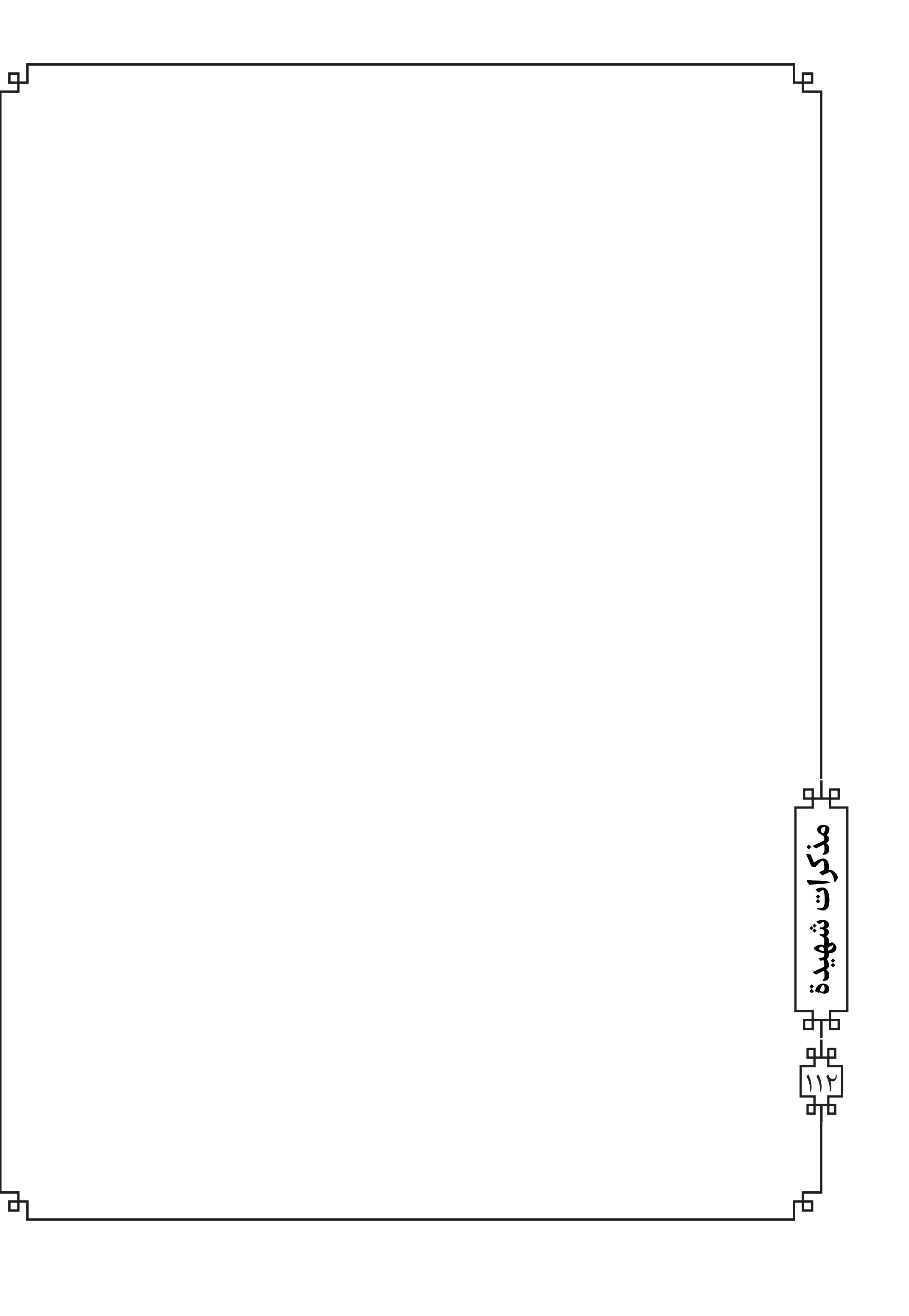
شيء واحد كان يقلقها هو ذلك الجنين الذي في احشائها ومصيره.

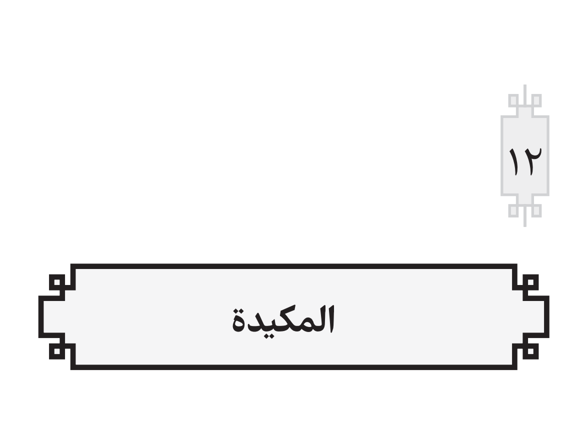
وجاءهـا المخاض وهي في الزنزانـة، بيننا نحن مثيلاتها وشـريكاتها في الاذى والمحنة، ولا يمكننا فعل شـيء لها، صحنـا على السـجانة فجاءت وهي متبرمة متسـخطة لاننا ازعجناها في هذا الوقت.

اخذوهـا الى المشـفى لتضع مولودها، وعـادت الينا بعد يـوم واحد الـى الزنزانة مع الطفلـة، فـارادت ابعادها عنها قـدر الامكان لئلا تكون عاطفتها سـداً امام نيلها الشـهادة، فتضعـف لمـا ترى مـن صغيـرة تحتـاج الى امهـا فتطلب صفحهم وعفوهم عنها، فطلبت منهم ان يبعثوا خلف ذويها فأبوا عليها، وقالوا لها بغضاً وكفراً:

نحن سـوف نربيها على مبادئ الحزب، ولن ندعها تسـلك طريق المجرمين، وكانت سـاعة اللقاء الذي انتظرته، ساعة ان تلتقي بالاحبة وتسرح في رياض عدن التي وعد الرحمن عبـاده. وذهبـوا بها الى الاعـدام وهي واثقـة الخطى، ثابتة الجنان، تنظر الى طفلتها بين ايديهم وتقول (حسبي الله).

وبعد ان تم اعدامها ارسـلوا الـى أهلها وأعطوهم الطفلة، وقد فعلوا ذلك ايغالا في الأذى لمن سـاروا على درب ذات الشوكة.





١٢

المكيدة

ومضـت بنـا الايـام لا أدري كم هي، فقد صـرت لا اعرف اسـم اليـوم الذي انا فيه ولا الشـهر، بل كل مـا اعرفه انني هنـا انتظر الموت مع بقية السـجينات، عيوننا مرهونة بهذا الباب، وهذا السـجان والسـجانة، نسـمع اقوالهم الجارحة وعباراتهم القبيحة، واسـتهزائاتهم السخيفة، نأكل طعامهم الـذي لا يسـمن ولا يغني مـن جوع، حبات مـن الفاصوليا صـب عليها مـاء صبغ بمعجـون الطماطـم، ولا ندري اهو طعـام حلال ام حـرام؟ الا اننا والحق اقول عشـنا في ذلك المكان عيش عارف بربه نسي الدنيا ومن فيها، اشتد تعلقنا بالله، استمر الحاحنا عليه بالفرج لامتنا التي تعيش المحنة بكل انواعها وتفاصيلها، يحوط بها جنود كشياطين الجحيم، وحوش كحيوانات مفترسـة، ويلح علينا سؤال يقول: لماذا يعيش المؤمنون تاريخ اخوتهم القذة بالقذة؟

ابتاه ماذا قد يخـط بناني والحبل والجلاد ينتظراني، وفي احـد الايام وأنا اتوقع الاسـوء وقد اعددت نفسـي للجولة القادمـة دخل علينا الجـلاد ويدعونه (مناتي) ولا أدري هل

هو اسمه أم اسم مستعار؟
وهو يقول: اليوم سوف نفرج عنكن بامر من السيد القائد. على رغم عقوقكــن وجحودكن فهو رحيم ببناته ويريد لكن الرحمة، فعليكن الشكر والتقدير لسيادته.
طبعا هذا غير معقول ولسنا مصدقين ما قال.
ـ الان نريــد منكــن ان توقعــن على بعــض الأوراق حتى تخرجن من السجن.
قلــت فــي نفســي: يــاالله مــاذا ســوف يلحقنا مــن هذه المكيدة؟ ماذا ســنكتب بهذه الاوراق؟ وماهو التعهد الذي علينا اعطاؤه؟
وماذا يمكن ان يحصل بعد هذا هل يهددوننا بالاعدام أو ما شــابه الاعدام، من رمي في التيزاب، وخنقا حتى الموت، أو اعطاء الســم القاتل، التعذيب حتى النفس الاخير؟، كل هذه الامور عرفناها وقرأناها وهي ليست مستحدثة، بل في صلب تاريخ الجناة.
اســتدعوا لبانــة التــي هــي انا كمــا ادعيت ســابقاً فاردت الذهاب الا ان لبانة رفضت هذه المرة وقررت ان تذهب هي وليحدث ما يحدث فســوف تنكشــف كذبتنا عاجلا ام آجلا، ولم استطع في ذلك الجو المشحون ان اقنعها فاستسلمت لامرها وسكتت، ويمكنكم تصور ما يدور بخلدي وخلد لبانة وهي ترى نفسها بين هذه الشرذمة القذرة، وماذا سيحل بها من جراء تلك الكذبة.
اسلمت امرها الى الله وذهبت ولسان حالها يقول:
اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيكا
ولا تجــزع مــن الموت اذا حــل بــواديكا

بالطبع السجّان لايدري ما القصة.
بقيت بعدها واجمة حائرة يسرح فكري في مسارح شتى، وكلها تصور لي الموت باشبع صورة.
يا الهي ماذا سيحصل للبانة؟ وماذا سيكون مصيري انا التي ادعيت انا هي لبانة؟ قد تمر على الانسان لحظات ضعف، فينهار أو يضعف امام صعوبات عسيرة مثل تلك التي نتعرض لها، وكم تكون مؤلمة بالنسبة الى نساء رساليات محافظات، محتشمات، يتحرجن من النظرة والكلمة.
مضت الدقائق بل السنين حسب ما يصور لي ذهني، احسب ان عقارب الساعة قد توقفت، وان الشمس لا تريد الافول مطلقا، ولا أدري كم مضى من الوقت وأنا جالسة حائرة مضطربة تنتابني الهواجس من كل مكان.
وهكذا مضت مدة من الزمن، ولم تعد لبانة، وجاء الليل وأنا أنتظر الا ان صاحبتي ورفيقة عسري وهمي لم تعد.
لم أنم تلك الليلة، ولم يطرقني طارق الا طارقا الهمّ والقلق الذي راح يساورني في شأن صديقتي، والاسوء من هذا انني رحت ألوم نفسي على فعلتي، وان السبب في كل ما سيحصل لي وللبانة هو في تلك الكذبة التي هي في الواقع تضحية خلناها قد تمر بامان.
واصبح الصباح ولكن لم يتغير شيء، يا الهي أتراهم فعلوا بها الأفاعيل فماتت حينها؟ أتراهم عذبوها حتى اغمي عليها فذهبوا بها الى المشفى، اتراهم ساوموا خطيبها على الاعتراف مقابل تركها وشأنها؟ كل هذه تخطر في بالي وتؤرقني بل تقتلني.
في تلك اللحظات الحاسمة فتح الباب علينا وقال:

أين من تدعي أنها لبانة؟
صعقت لسماع الكلمة، لقد عرفوا القصة، وسوف اتعرض لكل سـوء، سوف يسمونني سـوء العذاب، وكان دعائي هو أن أصمـد أمام ضغوطهم، ولا اعترف على احد من رفيقاتي واسـبب لهـن الاذى فانا فـي غابـة للحيوانات المفترسـة. ستفترسني كما افترست غيري من رفاق الدرب.
قلت: انا هي.
قال وهو يصرخ: هيا تعالي ايتها الخبيثة.
جرني من شـعري وسحبني الى الخارج وهو يصيح بصوت عـال، بل صوت كأنه صوت الحمير، لقد كنت اشـبه بنعجة يراد ذبحها، أظن ان القصابين احسـن حالا من هؤلاء. فهم يحسـنون طريقة الذبح، ويسـتقبلون القبلة حين الذبح، لم يمهلنـي حتى اصل الـى المكان الذي يريد بسـلام، بل راح يصـب حقـده ولؤمه علـيّ، وبادرني بالصفع والـركل؛ وكان بوده لو مزقني باسنانه.
ادخلنـي غرفـة الضابط التي اظنها غرفة الشـيطان الاكبر، فقد كان نذلاً وقحاً بذيئاً، يتطاير الشـرر من عينيه، تحسبه بـرأس شـيطان، وجثـة انسـان، هنـا لاح في ذهنـي قوله سبحانه: (كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ)، انه يترنـح يتهادى غرورا وتيها ولا لشـيئ مطلقاً. والذي اعتقده انـه العذاب الـذي يأكله ويحطمه حينما يـرى امرأة تصمد امامه وتدافع عن مبادئها رغم كل الاذى الذي يصب عليها.
وما ان رآني حتى قال ساخرا:
اهـلا بالفدائية الاولى، أنت بحاجة الى من يخلد اسـمك في قوائم المضحين.

قلت وأنا اتصنع العجب: ماذا تقصد؟

_ اقصـد كـم تحبيـن صديقتـك، ومن ايـن تعلمت هذا الفـداء، وهـذه التضحيـة؟ هل هـي مبادئ الحـزب الذي نظمكم؟ يالك من بطلة، سـترين ما هو عقاب من يضحك منا، ويهزأ بنا.

تجاهلت كلامه وقلت: لا أدري ماذا تقول.

_ تعرفيـن ياهدى انك كذبت علينا، وانك اردت ان تكوني الضحية مكان صديقتك الفاضلة، ولكن هذا لايخفى علينا، وحتى وان انطلت لعبتك لمدة من الزمن فها أنت ترين اننا اكتشفناها.

الان عزيزتـي المناضلـة اريـد ان اسـألك بعض الاسـئلة واريـد منـك الجواب الصحيـح، ولعل جوابـك ينجيك مما ينتظرك من مصير اسـود. ثم انك باجوبتك سوف تخدمين امتـك، وسـوف نسـتطيع القضـاء علـى المخربيـن الذين يريدون تسليم البلد للاجنبي، بتعاونهم مع عناصره اللئيمة الخمينية، والاسـئلة يا هدى أو يا لبانة هي بسـيطة وسهلة ويمكنك الاجابة عليها.

اتعلميـن انـا لم اسـمع بهذا الاسـم من قبـل ولا اعرف معنـاه، بالطبـع هذا ليس مهما فانا اريـد ان تجيبي على ما هو ضروري من اسئلتي البسيطة جدا:

ايـن تعرفـت على لبانـة؟ ولماذا كل هـذه التضحية من اجلها، اتخافين على عنصر فعال في الحركة؟ ام انك اردت ان تكوني المرأة النموذجية في العمل؟

انكن بطلات التاريخ كما يلوح لي، من قال لكن ان الدين يرضى بمثل هذه الاعمال وخاصة من النسـاء؟ الستنّ من

امرهـنّ القـرآن بالجلوس في بيوتهـنّ، والان انتن تخرجن الى الشوارع، وترفعن الاصوات بالشعارات، فهل هذا يجيزه الاسـلام الذي هـو دينكن؟ هيا تكلمـي واجيبي عن كل ما سألتك والا...

_ تعرفت عليها منذ كنا نسكن في حي واحد.

_ لم تريدين ان تحميها منا؟

_ لم ارد شيئا الا رضا الله.

هنا تنمر كمن نفذ صبره، وراح يصيح:

_ مـاذا تقوليـن رضـا الله؟ وهل يرضـى الله ان تعرضي نفسـك للخطـر من اجـل غيرك؟ ثـم صاح علـى جلاوزته: خذوها اليكم واكسروا شوكة عنادها وكذبها.

ويدلف ثلاثـة اخرون فيفعلوا بي ما فعلـوه بلبانة وراحوا يجرونني بعنف، وهنا وصل الى سمعي صراخ لبانة وصيحاتها الله اكبر.

_ ايها الجناة الويل لكم يا طواغيت العصر.

اوصلونـي الـى جـدار ثبتـوا عليه مسـامير سـميكة على ارتفاعـات مختلفـة ثم شـدوا يـدى من الخلـف وحملوني فعلقونـي منهما في المسـمار الأول فصرت في اسـر مطلق يـداي قد ارتفعتا من خلـف مثبتتين في الحائط وقد صرت امامهم وجها لوجه لا أجد دفاعاً عن نفسـي بشيء. علي ان اتقي بوجهي سوء العذاب، فذهب عني الروع حيث لاح لي ان الله سوف يعاقب من يعذبنا ونحن لم نفعل ما يسوؤه، ولم نرتكب جرما ولم نقترف اثما وسوف لا يجازينا سبحانه ان صبرنا ببشارة في الدنيا والآخرة، في الدنيا شهادة يحسدنا عليها حتى جلادونـا، وعاقبة كريمة وعدها الله الذين امنوا

(ان لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ.)
يارب يا خالق الاكوان يامن أنقذ يوسف من الجب وجعله بعد العبودية ملكا، يامن وقى مؤمن ال فرعون سيئات ما مكروا نجني من هؤلاء بان تشد على قلبي بالثبات.
يا رب ايرضيك هذا ان بيوت الدعارة تحمى وتحرس، وتحاط بالجنود، وبنات الايمان في سجون الظلمة مقيدات مضطهدات، يعانين سوء العذاب؟
كلها خواطر مرت في ذهني بلمح البصر، ومخي يبحث عن جواب لمن راح يسألني ويريد جوابا مني، وأنا شاردة الذهن عنه اسرح في ميادين أُحد وحنين.
صاح بي هذه المرة وهو متأكد انني شاردة البال قد نسيت ما انا فيه.
هنا اندفعت وقلت: أنا مصابة بمرض الروماتيزم الذي سرى بدوره الى قلبي وان في فعلكم هذا قتلي.
قال الأول ساخرا متهكما:
ايها الاخوة راعوا حال المسكينة في مرضها واياكم من قتلها فان ديتها ثقيلة فانتم في الاشهر الحرم، قال هذا وهو يغط في الضحك، ثم انهالت عليّ الضربات والسياط وكان أشدهما ما كان يلهب وجهي بحر ناره، واستمر الضرب طويلا وعلى فترات متناوبة، وبين كل فترة يأتون ليعاودوا التعذيب معي، وهم يضحكون ويصيحون اعترفي، اعترفي.
لقد استعملوا معي كل أنواع السياط ودرجاتها حتى جرى الدم غزيرا من وجهي وجسمي وصبغ بلونه القاني كل ملابسي ثم لم اعد احس باي ألم فصرت كمن شرب مخدراً.
فقال احدهم: خبيثة عندها قدرة على التحمل

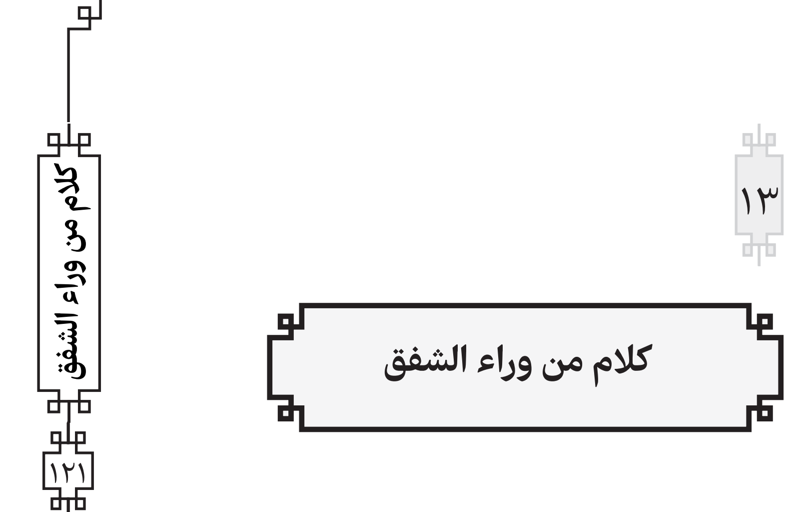
والمقاومــة، لا تمــوت ولا يغمــى عليهــا، وفهمت من ذلك اشارة منه بتصنع الاغماء.

عندها تصنعــت الاغماء فانزلوني مــن مكاني ووضعوني على الارض، ثم راحوا يرشــون عليّ الماء، وشــعرت ببرده، فأوشكت أســناني ان تصطك، واقشعر بدني وصرت ارتجف فظنوا انها انتفاضة ما قبل الموت، فجاءوا بالقناع فوضعوه على رأسي، واسرعوا بنقلي بسيارة الى المشفى.

لم اشــعر الا وأنا بين جــلادي على تلك الحــال، ادخلوني المشــفى ليلا فرأيت هناك مجموعة من المرضى ينازعون المــوت ويجهــدون في ذلك جهــداً بالغاً ينتظــرون مراجعة الطبيب الخفر، وحين رأوني عجبوا لحالي وكأنهم نسوا ماهم عليــه مــن الاذى، ادخلونــي على الطبيــب وراح يحدق في، وقــد عرف اني مريضة بمرض خاص اســمه الجلد والعذاب الشــديد، وقد قرأت في نفســه كلمات يريــد ان يقولها لكن الخــوف منعه ذلــك، ودون ان يتكلم امر لــي بحقن بالوريد وبالعضلة وجاء أحد الجلادين الذين جاءوا معي وقال:

ـ هذه الفتاة تدعي انها مصابة بمرض القلب نرجوا التأكد مــن ذلك، واقبل الطبيب وعاود الفحص ثم صمت لحظات وهو يسترق النظر اليّ نازع نفسه فيها من ان يقول الحقيقة أو ينفي ذلك فقال:

ـ انهــا مريضة، وينبغي توفيــر الراحة لها فان تكرر ما حل بها سيميتها.



عـدت الى زنزانتي وأنا ملطخـة بالدماء، منهوكة الاعضاء، تخالني شبح من الاشباح لما بي من شدة الضعف والوهن. لـم اكـن اتوقـع انـي اسـتطيع تحمـل كل تلك السـياط، واللكمات من ايد لا تعرف الا البطش، ومن السـن لا تتفوه الا بالبذاءة وكأنها خلقت منها، ولا تعرف لغة غيرها.

طرحـت علـى ارض الزنزانـة الرطبة، وحولي تفـوح روائح الكنيـف الذي امتلأ بالفضـلات، فعاد المكان اشـبه بمحل للجيف.

انطلق بي الجلادون الى السجن وارجعوني الى تلك الغرفة الكريهـة التي حبسـوني فيهـا أول مجيئهـم، وحين دخلت فوجئت بلبانة طريحة تئن وقد غطت الدماء صفحة وجهها المشـرق وتغير وجهها وتورم جسـمها ووجهها حتى لا تكاد تعـرف من هي. وحين رأتني هشـت باسـمة لـيّ وبعد لأي وجهد جهيد، قالت وهي تحمل نفسها على الكلام:

ـ تقبل الله طاعتك وذهب العناء وبقي الاجر.
الصبر ياهدى حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين، وحاولت ان أأسو لها بعض جراحها لكنها رفضت قائلة:
أنت اولى مني بذلك وأنا أجدر بان أقوم به لك.
ـ وأخذت جانبا من الغرفة المزدحمة لأستريح.
قالت لبانة بصوت خافت: لا تغفلي عن الصلاة فلم البث مليا حتى تيممت وصليت بعدها توجهت الى لبانة اسـألها: كيـف عذبـوك؟ اظن انهم اسـاؤوا عذابك لقد كنت اسـمع صيحاتك المؤلمة.
وتكلفت التبسـم ثم قالت: لقد عذبوني كما عذبوك، واما صيحاتـي فقد كانت نفثات قلب فقد التصبر والتجلد، ولقد ارجعوني مرة اخرى الى الضابط فقال لي:
لقـد اعترفت هـدى بالحقيقة، وقد انبأتنا بكل شـؤونك وحركاتك أو فلنقل جهادك، هذا خير لك أن تقولي الحقيقة.
ثم التفت الى مجرميه قائلا:
امسحوا الدم عن وجهها، اظن انها سوف لن تعرض نفسها للأذى مرة آخرى وسرعان ما فعلوا فعاود الكلام قائلا:
ـ نحن على علم بكل تحركاتك ولكننا شئنا ان نسمع عنها من لسـانك لنبين لك بعد اقرارك انك كنت مشتبهة، آملين ان لا تقعـي مرة آخرى في الاشـتباه، ثـم تذهبين الى بيتك الجديد، عاقدة العزم على ان لا تتورطي بمثل هذه الاعمال اللاقانونية.
فقلت له:
ـ لو كنت اعرف من نفسي وعملي ما تقوله عني لاعترفت به ولم اعرض نفسـي لهذا العـذاب المرير، واذا كانت هدى

قالت شيئا فهي مجبرة على ذلك القول، وان الذي انتزعتموه منهـا هـو نتيجـة التعذيب، أو لنقـل انها كاذبـة وعليك ان تحضرها لاناقشـها في ما تقول انها قـد اعترفت علي به. ـ فكـري في امرك فكر المتدبـر العاقل الذي لا يريد الا صالح نفسـه ولا تكونـي حمقاء لا تجلب لنفسـها الى الا الشـرور والضرر.

ـ لو كنت قاتلة ثم عذبوني هذا العذاب لاعترفت، ولكنني بريئة فـي ما اتهموني به، وسـتعرفون انـي بريئة، ويضحك الضابط ساخرا وهو يهز رأسه:

ـ قاتلـة، القاتل اهون منـك جرماً ولو كنت قاتلة ما جئنا بك الى هنا، الا تعرفين انك تريدين قتل الثورة لتسـتبدليها بالناقـة والخيمـة والقطـع والرجـم والجلد في عصـر الذرة والصاروخ وصعود القمـر؟، وهذه جريمة عظمى ولكنك لا تشـعرين بها ولقد كان ما رأينا، ومن الاجدر بك ان تعترفي والاعتراف بالخطأ فضيلة سـنجازيك عليه بالافراج عنك مع تعهدك الا تعودي اليه ابدا.

وسـكت ولم اجد جوابا فتناول هو الكأس امامه ليشـرب الماء ثم يرمي ببقيته في وجهي.

ـ ماذا تقولين الا تريدين ان تعترفي؟

لو كان عندي شيء لبحت به كما باحت هدى كما تقول.

ويشـتد غضب الضابط اللئيم، ويصر على اسـنانه، ويقول بغضب ظاهر:

ـ سـأريك كيـف تبوحين، ثـم راح يجرني هـو ومن حوله مـن جلاوزته بعد ان صفعني على وجهي صفعة قوية تطاير لها الشـرر من عيني حتـى اذا اوصلني الى مكاني الذي كنت

اعذب فيه، امر ان اعلق هذه المرة من شعري وقضيت على ذلـك حينـا غبت فيه عـن الوعي امدا وحيـن فقت، امر ان اعلق من الثديين على افظع صورة وذهب وعيي هذه المرة سـريعا فما احسسـت الا وأنا في هذه الغرفة وان الشـهادة ماثلة امام عيني كأني اراها تبتسم لي، تهش وتقول: هيا الى الراحة الدائمة من هذا العذاب المر.

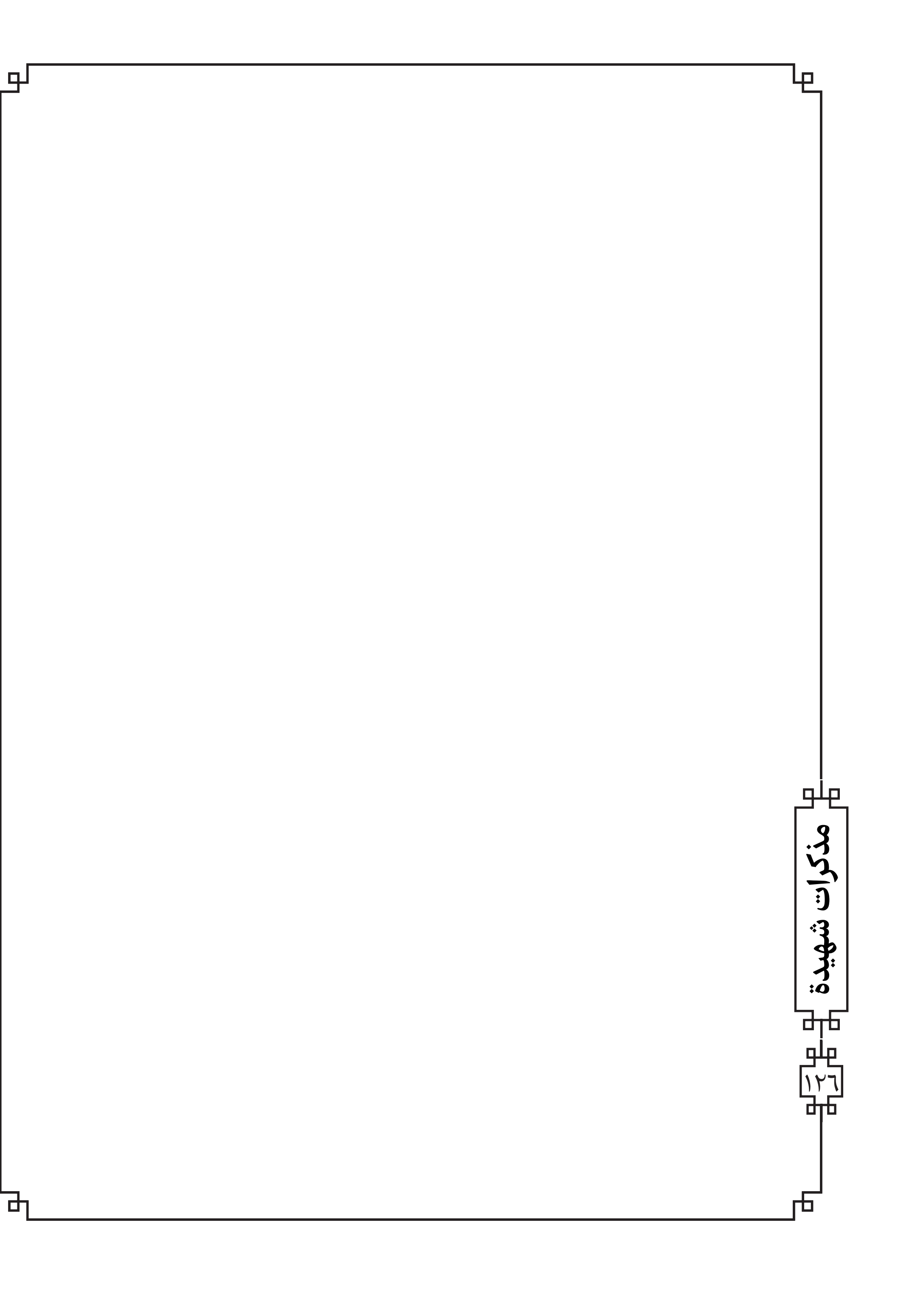
اتريـن لقد انكشـف الغطاء عن عيني وها انا اشـعر كأني مسـافر كان يطـوي البيـداء بحثا عن ملاذ فوجـده أو لنقل قـد اقترب منه، وها انا احـس كأن روحي تطير في فضاء لا حد له ولا نهاية، واسـرح في عالم سـحري مضيء تبتسـم لـي ارواحه وتباغمني اطياره، وتمرح امـام عيني حوره، انه ذلك العالم الحقيقي الذي وعدنا به، وجئنا لنكافح من اجل الوصول الى مقاماته، والعروج الى سـبحاته، يا رب اشـفق علينا وشـدد جراحنا، وضمد كلومنا فهي في سبيلك راعفة، وفـي طريقـك ماضية، وليكن ما يكن مـن امرنا ما دمنا لم نتخـط حدودك، ولم نعارض اوامرك، ولم نمتثل الا قولك، وهؤلاء يارب انر بصائرهم وعرفهم طريقهم، ودلهم صراطك فهـم تائهون ومن اولى منك برد التائه الى مكانه وانتشـاله من ورطته وضياعه.

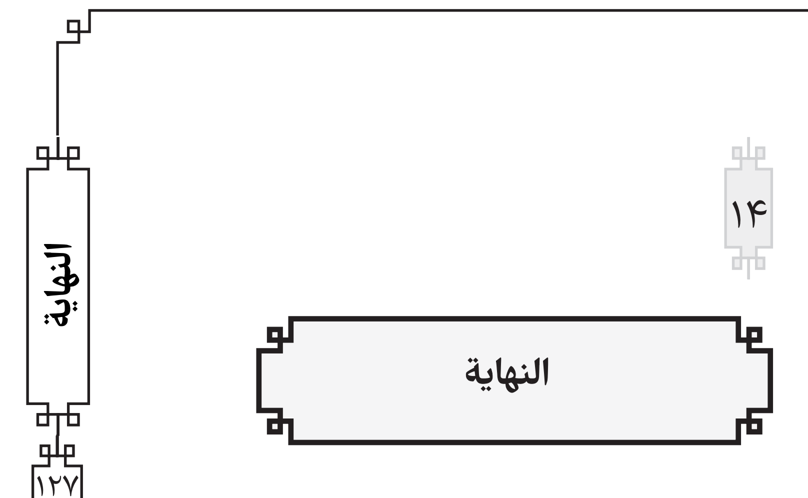
لـم يبـق امامنـا الا القليل لنحظـى بالكرامـة ولنكون مع الفائزين الذين صدقوا فيما عاهدوا، ووفوا بما وعدوا.

كانـت لبانة تتكلم وكأنها تـودع الدنيا، و كأنها تتكلم من وراء الشفق، وكانت كلماتها تنساب الى روحي قبل ان تصل الى اذني، فاطرب لها وتنسـكب الدموع من عيني احس لها بـرداً وسـلاماً، انها تخـرج من عيني فلا احس لهـا لذعاً ولا

حرقةً، بل هي تنساب بهدوء السكينة، وتنسل انسلال النور برقة وصفاء من دون كدر أو عناء.

اهــي دموع الفــرح يارب؟ اهــي دموع الــوداع من هذه الدنيا الفانية؟ انها دموع البشارة الربانية لعباده، يقويهم بها ويشد اعضادهم.





١٤

النهاية

وتتم لبانة حديثها الاتي من وراء الغيوم، وكأنه موسيقى سـحرية ترن فـي اذنـي أو صوت ملائكـي يرتل بالتسـبيح والتهليل، انه عزف روحاني يردد انشـودة السحر، وايقاع لم اعهد له مثيل يشـنف سمعي في هذه اللحظات مع صديقة الجهاد ورفيقة الدرب المكافحة التي اعادت لنا صور سيداتنا واخواتنا في الكفاح من امثال زينب وسمية وغيرهن.

واتمت كلامها الذي يخرج مع انفاس تكاد تنقطع فتحس روحي انها ايضـا تتمزق وتريد العروج الى ذلك العالم الذي تسرح فيه لبانة.

ولقـد رأيت قبل ان افيـق من الغيبوبة كأنـي وقفت على سـاحل بحر عباب متلاطم الموج أتأمل في سـعته وتلاطم تيـاره، وتأملـت ملياً فاذا في وسـطه جزيـرة خضراء زاهية تتألـق بهجة وحسـناً، ثم تأملـت فاذا فتى قـد جلس على طرفـي الجزيـرة قرب سـاحلها يروح عن نفسـه وحين رفع بصره نحوي رآني فرفع يده مشيرا اليّ ونادى قائلا:

ـ الـيّ يـا لبانة انا عماد وهذه الروضـة الفيحاء هي مأوانا

ومنزلنا.

قلـت ـ وقد أخذ مني الشـوق مأخذه وطغـت في الرغبة الجامحة الى بلوغ ذلك المكان، وجمحت عندي الحيرة من امـر الوصـول اليه وليس عندي اية حيلـة الى ذلك فرفعت صوتي:

ـ وكيف اصل اليك وهذا البحر كما ترى؟

ـ لا تخافي قولي بسـم الله، ثم انقلـي خطاك على الماء، سترين انك كمن يمشي على الارض.

ـ انني اخاف ياعماد وقلبي لا يطاوعني.

ـ اتشـكين فـي كلامـي؟ افعلي مـا قلت لك سـترين اني صـادق وما هـي الا لحظات نازعت فيها نفسـي خلالها بين الاقدام والاحجام حتى كنت اغمض عيني واقول بسم الله، ثم امشـي على الماء، فكأنني امشـي علـى الارض، خطوت اول خطوة على ارض الجزيرة ثم استيقظت وقلت في نفسي عند اليقظة لعل هذه الجنة وسـط البحـر الهائل من العناء والبلاء تجسيدا للقول الكريم:

[أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ]

وقـول رسـول الله: [حفّـت الجنة بالمـكاره وحفّت النار بالشهوات].

وقلـت ايضـا ان عماد قد استشـهد أو انه فـي طريقه الى الشـهادة وانني سوف الحق به بعد فترة من العناء وهي في الحقيقة لا شـيء امام العاقبة التي تنتظر الصابرين، وتهيّب الانسـان منهـا لا معنى لـه، أو مبالغ فيـه كتهيبي من عبور البحر وخوفي من ذلك، وحين اتممت لبانة حديثها تنهدت

ثم صمتت.
وفُتحت الباب فدخل احد الجلادين يحمل في يديه شيئا مـن الخبز وضعه قرب لبانة بعد ان بصق في وجهها وخرج، وقالـت لبانـة _ اللهم ارزقنـي الصبر على البـلاء والاجر في المحنة.
وعاملنـي بفضلك لا بعدلك، كلي يا هـدى من هذا الخبز فانت لاريب جائعة أشد الجوع، وناولتني منه فاكلت ولبثنا على ذلك مدة من الليل نئن من شدة الجراح حتى احسسنا ان الليـل قد مضى نصفه أو كاد، ففتحـت الباب مرة اخرى ليدخـل منها رجل قاس فظ غليظ ليحدق في وجه لبانة ثم يصيح فيها:
قومي ايتها...ومد يده اليها يجرها حتى اخرجها.
وبقيت بعدها اعاني هموما ثلاثة:
الم الكلوم في جسـدي، والغم لحـال لبانة، والارق الذي استعصى عليّ معه حتى النوم، ولا أدري كيف نمت لاستيقظ قبل طلوع الشـمس لابادر الى الصلاة قبل ان يفوت وقتها، ومكثت في مكاني بعد ذلك اكثر من ثلاث ساعات، ففتحت الباب، ودخل احد المجرمين ليبادرني بالشـتم المقذع، ثم يجرني الى سيده الضابط الذي حدقّ فيّ مغضبا ثم قال:
لقد قررت ان اميتك تحت العذاب الا ان تعترفي بالحقيقة، واذا اعترفت فانني سأسـعى لارسـالك الى الخارج لتتعافي من مرضك، ولا اظن ان فوات هذه النعمة سيسهل عليك، وقد اتتني البارحة لبانة هنا واقرت بكل شـيء فاعتذرت لها عـن الاذى الذي لحق بها، وان كانت هي السـبب فيه لعدم اعترافها وقد ارسـلناها الى احسن المستشفيات للمعالجة،

ثم تغـادر من هناك الى بيتها، وقـد اخبرتني انها تتمنى ان تـراك لترجوك الاقـرار بالحقيقة مثلها لتنالـي مثل ما نالت من الخلاص من سورات العذاب، ولكن احتياجها الى سرعة المعالجـة منعها مـن لقائها بك، وها انا اخبـرك بحقيقة ما صنعت وبرغبتها هذه.

احسست من لهجة كلامه انه يسخر مني، وان ما يقوله هو عيـن الكذب، وانه يريد ان يجرنـي الى الاعتراف الذي يعني القضاء على اخواتنا اللائي بقين في سجن العراق الكبير.

قلت له: حسـنا: صنعت لبانة حين اقرت بحقيقة ما تعلم من عملها ولا أدري اكان اعترافها ذلك صادقا أو غير صادق، فانا لا اعرف عن أمرها شـيئاً ولو كنت اجد ما اعرف به مما تطلبـه أنت منـي لاعترفت على عجل لكي الحـق بلبانة الى المستشفى اولاً ثم الى البيت ثانياً.

فرد عليّ: فكري في الامر جيداً ولا تفوتك الفرصة السانحة وسـأمهلك ثلاثة ايـام للتفكيـر، ثم ان اصـررت على عدم الاعتراف سأنفذ فيك تهديدي وهو تعذيبك حتى الموت.

وأمـر الشـخص الـذي جـاء بـي ان يرجعني الـى غرفتي، ورجعت حيث اتيت وانقضى يومان من المدة، وجاء اليوم الثالـث ولم اعرف عن لبانة شـيئا، ولم ينقض اليوم الثالث حتى نقلوني الى غرفة مجاورة وبعيدة، وبُعيد منتصف الليل سمعت صوتها تئن وتبكي وقد جاءوا بها الى غرفتنا الاولى وفهمت من كلماتها هذه العبارة:

قتلتمـوه... اقتلونـي لا طمع لي في العيش تعسـا لحياة تنقضـي في جحيمكم يا اضرى مـن الوحوش، وانجس من الكلاب، وسـمعت بعد ذلك جسدها يهوي على الارض بعد

ان دفعوهـا بشـدة واوصدوا الباب ثم ذهبوا سـمعت بعد ذلك صراخها الشديد يأتيني خافتا وأرهفت سمعي فاذا هي تدعو باكية وفهمت بعض فقرات من دعائها:

اللهم احشـره مع الشـهداء ولا تحرمني سرعة اللحوق به، اللهم عظّم اجره بعظم ما رأى من العذاب، وذاق مرارته.

اللهـم ارضه عني فقد كنت سـببا الى العناء الشـديد الى قلبـه، ولقـد رأى بسـببي مـن الجلاديـن مـا لا يحتمله الا القليلون.

اللهم اشهد له قولته الكريمة لجلاديه:

الـم الجراح في سـبيل الله مـا احلاها، ومـر المذاق في سـبيل الدعـوة احلـى من الشـهد، عليّ ان اشـكركم لانكم اوصلتموني الى ما اريد واطمح.

ولقد ذاق الاولون من منكرات البلاء في سبيل الحق مما هو أشد من عذابي الف مرة.

وظلت تناجي ربها حتى همد صوتها، وفتحت باب غرفتها صباحـاً وخرجوا بها يعنفونها ويغلظون لها السـب والاهانة والوعيـد حتـى غابـت اصواتهم عن سـمعي فبكيـت ملياً ودعوت لها كثيراً وسألت ربي الراحة لها من عنائها.

وانقضـى الموعد الذي حـدده الضابط ولم يبعث اليّ وقد هزلت هزالاً شـديداً واثر فيّ سوء التغذية اثراً بالغاً فما هو الا الخبز يصحبه شـيء من الادام اكله على عدم رغبة فيه طمعا في سد الرمق ودفعا لغائلة الجوع المضني.

مكثـت على ذلك بعد انتهاء الموعـد الذي حدده الضابط واستدعيت بعدها اليه فنظر اليّ شزرا وشتمني شتما مقزعاً، ثم هددني بتنفيذ وعيده، ثم نادى احد جلاوزته قائلا:

خذهـا فارها العناد ماذا فعـل بصاحبتها، واندفع المأمور يجرنـي بعنـف حتى اوصلني الـى غرفة من غـرف التعذيب فرأيـت امراً مريعاً اوشـكت له عيناي ان تعميـا، وقلبي ان يتوقـف، وكـدت ان اهـوى الـى الارض لولا بقيـة من قوة للتماسـك والتجلـد، لقـد رأيـت لبانـة صريعة قـد تغيّرت محاسـنها ووجهها الفتان، وغمر وجهها الـدم وكل انحائها، قد قيدت يداها وراءها، وأُوثقت رجلاها، وانتثرت خصلات من شعرها في ارض الغرفة، ووقفت مبهوتة خاشعة لجلال الشهادة وهو يكفن جسد هذه الصريعة الكريمة.

دمعت عيناي وفترت اطرافي، وسرى في جسدي من البرد ما سرى في جسدها من برد الموت وسكينته، تمثلتها امامي وهي تقص عليّ رؤياها التي رأت في المنام من عبورها ذلك البحـر الهائج الى تلك الجزيـرة الخضراء التي رأت زوجها قد سبقها اليها، وتمنيت في تلك الساعة ذلك الموقف الرهيب ومن ذلك القلب الخاشع الذي تعلق كله بالسماء ان ينيلني ما نالت وان لا يحرمني صحبتها في الآخرة.

هنا صاح بي احد الجلادين:

ـ اعرفتهـا جيـدا. انهـا رفيقتك وقد سـبقتك الـى الراحة والشهادة ها ها ها، هل تريدين ان تلحقي بها تعالي لنصلي عليها صلاة الاموات. لا بل قولي صلاة الشهداء.

وهنا ضحك ساخراً ثم قال:

هيـا الى نفس المصيـر ان لم تعترفـي، وذكرني ما رأيت مـن منظرها صريعـة بين ايدي اللئام، مهتوكة السـتر رغما عنها، مدماة الانحاء، مصرع شـهيدة الاسلام الاولى سمية بنـت خيـاط بين ايدي الفجـرة، وزادني ذلك عزمـاً وصلابةً

واسـتعذبت ان يفعل بـي المجرمون ما فعلـوه بصاحبتي، وحين اقبلت على الضابط تبسم وقال:

ـ مالـي لا اراك تبكيـن علـى صديقتك الوفيـة، هل هذا هـو الوفاء عنـد المجاهـدات، أم غلب عليـك الخوف من نفس العاقبة فمنعك من التأثر والبكاء؟ حسـناً لقد قدمت لـك آخر انـذار فهيا تهيئي واحزمي أمـرك ولا أظنك ترغبين بالانفصـال؟ اما أن تعترفـي أو تذهبي الى الموت، ثم نادى على احدهم:

خذهـا فالحقها بصاحبتهـا، واقبل عليّ الوغـد فجرني ولا أدري كيف حانت مني التفاتة فرأيت الضابط يشير اليه بيده بعلامة عدم الشـدة في التعذيـب، وأدى المأمور ما أمر به، ثم ارجعني الى الضابط بأمر منه وحين وصلت صاح بي:

تعالي وقعي هذه الورقة التي رتبتها أنا، رحمة بك واحسانا اليك لاسـرع فـي اخراجك من هـذا المـكان وأنت مريضة وبحاجة الى الراحة.

ـ فهل تسمح لي ان اقرأ ما فيها؟

ونظر الي ممتعظا ثم قال غاضبا: اقرأي بسرعة ووقعي.

ورحـت اقرأ فاذا به يثبـت عليّ فيها مـا انكرته وتحملت العـذاب من أجـل انكاره، وبعـد أن أتممـت، رفعت نظري الحائر اليه وقلت:

عـلام اذن تحملت العـذاب كله؟، فلـو كان هذا صحيحا وثابتا عليّ فلِمَ لم اوقع من اول الامر ولِمَ تحملت كل ذلك العذاب المضني، وقاسـيت ألم السياط المبرحة التي شقت طرقها على جسدي، وأوهنت عظمي، ونهشت لحمي.

ـ اذن لا تريدين ان توقعي؟

ـ اظن أن لي عذري، ولو كنت أنت مكاني فما في وسعك ان تفعل في هذه الحالة.
ـ كنت اوقع وانهي مأساتي.
ـ امـا انـا فـلا يأذن لـي ربي ولا ضميـري أن افتـري على الآخرين أو على نفسي.
- فمن هو الذي اذن لك في الافتراء على اولئك المناضلات واتهامهـنّ بأنهنّ من رفيقاتك فـي العمل لتوقعيهن بالاذى وتوقعينا في الاحراج؟
- انني لم اتهم نفسـي اولاً بـأن عندي العمل الذي تعنيه، ثم لم أتهمهنّ بانهنّ رفيقات عمل، بل مجرد صديقات.
واطرق مليا ثم رفع رأسه ليقول:
- حسنا حاولت جاهدة ان تدفعي عن نفسك جرم المعاداة للثـورة ومحاربتهـا ولكن اعلمي ان العقوبة سـتلاحقك بعد خروجك من هنا، وتنالين الجزاء على ذلك الجرم.
ثم نادى احد اعوانه قائلا له:
لقد اتعبناها واذيناها كثيرا واظنها الان جائعة آتها طعاما لذيذا ولا تنس أن تصحبه شـيئاً مـن الفاكهة، ولا تنس أن تأتي بالشاي من بعده.
وابدى المأمور علامـة الطاعة ثم انصرف، وبقيت انا افكر محتـارة ما الذي غيّـر من نفس الجلاد؟ الذي يفكر به الآن، مـاذا يريد ان يفعـل بي بعد ذلك؟، هل تراهم سـيفرجون عنـي وهذه علامة ثبوت براءتي عندهـم؟ وظللت أدور في الدوامة حتى جـاء المأمور وبيده الطعام المطلوب فوضعه أمامي قائلا:
ـ هذا هو الطعام وسآتيك بعده بالشاي.

فقلت له: لا داعي للشـاي لانني لا اشعر بمسيس الحاجة اليه.

فقال الضابط: كيف؟ الشاي لابد منه لمثلك.

_ لا احب ان اسبب العناء لهذا الانسان.

_ انه في خدمة الشعب، اعني الذين لا يعادون الثورة من الشعب.

_ وهل ثبت لديك انني لا اعادي الثورة؟

_ اذا كنت تعادينها من قبل فانت سـوف لن تعاديها بعد الان.

ورحت آكل من ذلك الطعام فان حاجتي الى الطعام كانت تلزمني الاكل حتى اسـتوفيت حظي منه، ثم جاءني بالشاي فشربت بعدها قال الضابط:

لمَ لا تقدمي لنا الشكر؟

_ على ماذا؟!!، على التعذيب أم على التحقير؟

_ وهذه واحدة منك ايضا نسكت عنها ولا نحاسبك عليها، كما سـكتنا عن اكذوبتك بادعائك انك لبانة واعطاء اسماء مناضلات زاعمة أنهن من جماعتك المخربة ثم أخذ يحدق فيّ مليا وقال بعدها:

_ حسنا ليس عليك آثار توجب تأخير خروجك فاستعدي لمغـادرة هـذا المكان بعـد ثلاثة أيام علـى ان توقعي على تعهد بعدم سـلوك سـبيل معاداة الثورة والحزب أو السعي للاضرار بها بأي وجه، وعدم ذكر اي شيء مما جرى لك هنا، والا فانك قد رأيت بام عينيك كيف يكون جزاء من يعادينها أو يخالفن أوامرها وأشار الى أحد جلاوزته قائلا:

_ خذهـا الـى مكان أنظف ممـا كانت فيه، وأعطها لباسـا

جديدا وأرجع اليها حجابها، وأحسن اطعامها، ولا تنسى ان تأتيها بالدواء اللازم تداوي به جروحها.

وانطلق بي المأمور الى مكان آخر لم أره من قبل، وادخلني غرفة نظيفة ثم جاءني بلباس ودواء وأغلق الباب وانصرف، وكأنني احسست بالسرور لما حدث فحمدت الله ولا أدري كيف عدت بعدها الى دوامة، التساؤلات والمخاوف. ماالذي غيرّ تصرفات هؤلاء عني؟ وماالذي صرفهم عن أن يفعلوا بي فعلهم؟ اترى وراء ذلك نوايا سيئة ستكشفها الايام؟ لاكن صريحة مع نفسي ولاقل أتراهم اطعموني سبب الموت ثم يخرجونني لاموت خارج سجنهم ليقال ماتت حتف أنفها ولا أحسب عليهم جريمة من جرائمهم؟

واحسست بدخول وقت الصلاة فسكنت مشاعري وهدأت نفسي فقمت لاطرق الباب مستدعية أحدا منهم عسى أن يهيئ لي السبيل الى الماء كي اتوضأ، فجاءني أحدهم وأخبرته بحاجتي فدلني على مكان الماء، وحين أقبلت على الماء تذكرت ان بعض مواضع الوضوء متنجسة ولا يمكن ازالة نجاستها بسهولة وفي بعضها جروح لم تندمل، بل لا تزال تنزف فاكتفيت بغسل يدي وشربت غرفتين من الماء ثم رجعت ادراجي فسألني المأمور: هل هذا هو الوضوء؟

فقلت: لا، ان الوضوء لا يصح الان.

فاطرق رأسه قليلا ثم تحسر قائلا:

هنيئا لكم تعيشون في دنياكم مرتاحي الضمائر والقلوب، واذا كانت هناك آخرة فانتم مرتاحون ايضا، اما نحن فنعيش في هذه الدنيا مع صراع النفس أشد العذاب، وان صح ما تقولون من وجود يوم القيامة فعذابنا أشق وأدوم، تعسا

ليوم دخلت فيه هذا المكان، وتحملت مسؤولية اقذر مهنة في الدنيا، أنا تعيس، انا اتعس انسان في العالم، ثم ارجعني الـى مكانـي وانصرف وقـد علت وجهه غبرة الذل والاسـى، وبقيت في حيرة مما سـمعت حتـى ان اذناي لم تصدقا ما قال أكان يهذي؟ أم انه قالها عن عقل وشعور؟ أهو الضمير الذي لا يبارح الانسـان ولا يفارقه؟، تذكرت أعداء الحسين عليه السلام يوم الطف وبكاء بعضهم عليه حتى ان سيدهم ابن سـعد بكى لما شـاهد المصرع، قلت في نفسي ان الله سـبحانه لم يترك حتـى عبـاده العاصيـن المعاندين دون جـرس انذار يـدق في وجدانهم يصيح بهـم انتبهوا، عودوا، ارجعوا فالظلام حالـك، والصحراء قاحلة لاهبة غرثى تقتل ولا ترحم. عودوا قبل ان تفوت الفرصة.

وانقضت الايام الثلاثـة الموعودة فاخرجوني الى الضابط الـذي اخرج لي ورقة التعهد فوقعت عليها ثم اوصلوني الى الشـارع العام بعد ان أعطوني خمسـة دنانيـر، وعجت في اعماقي الاحاسيس.

(مـا اعذبك ايتهـا الحرية التـي وئدت على ايـدي الجناة! وما ارحبك ايها الفنـاء الذي صيره البعثيون علينا قبرا! وما اشـهاك ياهذا النسيم المنعش الذي تشممت بدلا عنه في سجون الظالمين كل ريح خبيثة).

وانسـابت دموعي لهذه المشـاعر، ثم اتخذت السبيل الى بيتـي ولا أدري كيف أصف مشـاعري ومشـاعر أهلي واخص منهـم والدتي حيـن طرقت عليهـم البـاب ففتحت لادلف منهـا الى البيت لاكون امامهم وجها لوجه فكأن قلوبهم قد شـخصت لي من صدورهم لتحتضنني وتعانقني، ولتمتزج

القبـلات بالدمـوع، وكان مشـهدا عشـته عزّ لـه النظير في حياتي.

وتمر الايام فأحس معها شيئا فشيئا بسطوة المرض باتت تسـري في عروقي، فتذكرت هنا ذلك الاكل المسموم الذي اطعمنيه الجلادون وراحت كلمات ذلك الضابط الكريه ترن في اذني:

ولكـن اعلمي ان العقوبة الالهية سـتلاحقك بعد خروجك مـن هنـا، وتنيلـك جزاء ذلـك الجـرم، وتذكـرت مخاوفي واحاسيسـي بعد ذلك الطعام وأنا بعد في السجن، (اتراهم اطعموني سـبب الموت فاخرجوني لاموت خارج سـجنهم ليقـال ماتت حتـف انفها، والح عليّ نداء من داخل نفسـي ان اكتب ما قاسـيته مع هؤلاء الظالمين في مذكرات كأنني اعيـش كل واحدة منها في وقتها، واتركها للاجيال والتاريخ يتعرفـان منها بعضا من منكرات البعث اللئيم التي لا مثيل لها على مدى الزمان الممتد الحافل بالفجائع والنكبات).

من كتاب الجهاد الكبير المسطور للمرأة الثائرة في عراقنا، ومن سجل التضحية الذي كتبت فيه بحروف من دمها وعنائها قصة البذل والفداء، ومن النار المسعّرة لتلك الهموم المقدسة والآهات الشريفة، والحسرات الرضية، والأنات العاشقة تحت سياط الجلادين تتصعد الى رب العالمين. تستخرج هذه الذكريات لواحدة من بنات الايمان، ونساء العقيدة، وحاملات المشعل، وناشرات اللواء، ثورة على الباطل الكريه، وطلبا لنصرة الحق واعزازه، وتمكينه من زمام الريادة لمجتمع صهرته رمضاء الآلآم المـــضنية في مفاوز الذل والحرمان، في أكناف الجاهلية البعثية _ مشاركة منهن لاخوانهن الرجال في ملاحم الكفاح الاسلامي المقدس.

Memoirs of a Martyr

Toqa AL mousavi